العلاقات التجارية بين سلطنة المماليك وجزيرة قبرص
(دراسة في دور وتأثير المصالح الاقتصادية زمن الحروب الصليبية)

د. إبراهيم محمد حامد سليمان
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
بكلية دار العلوم- جامعة المنيا

ملخص البحث:

لعبت جزيرة قبرص دورا محوريا في أحداث الحروب الصليبية منذ بدايات القرن الثالث عشر الميلادي، بعدما تمكنت أسرة لوزجنان الصليبية من الوصول للحكم داخل الجزيرة؛ فقد أخذ هؤلاء الحكام على عاتقهم مهمة دعم الصليبيين المقيمين بالشام بما يحتاجونه من مؤن ومحاربين، كما أن الجزيرة أصبحت آنذاك محطة رئيسة للحملات الصليبية المتجهة إلى الشرق الإسلامي. ولعل هذا الأمر هو الذي جعل سلاطين المماليك يعون منذ البداية الخطر الذي باتت تشكله قبرص ضد ممتلكاتهم؛ لذلك فقد شرع السلطان بيبرس مبكرا في محاولة غزو هذه الجزيرة والسيطرة عليها، بيد أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح. من ناحية أخرى، فإنه بعد نجاح المماليك في الاستيلاء على عكا، وطرد الصليبيين من الساحل الشامي، فإن حكام قبرص قاموا بفتح أبواب جزيرتهم أمام هؤلاء الفارين، وأصبحت هذه الجزيرة هي المركز الرئيس للحركة الصليبية طوال القرنيين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين.

مهما يكن من أمر، فبالرغم من المناوشات التي كانت سائدة ما بين سلطنة المماليك وجزيرة قبرص، إلا أن العلاقات ما بين الطرفين لم تكن عدائية على طول الخط، وإنما كانت تشهد أحيانا تواصلا وتقاربا بحسب مقتضيات الظروف. ولعل العامل والسبب الأهم في هذا التقارب تمثل في المصالح التجارية، والأرباح الطائلة التي كانت تتحقق من وراء تبادل البضائع التجارية بين الجانبين. ولعل الرغبة في الحصول على الأموال هي التي دفعت تجار قبرص مبكرا إلى خرق الأوامر البابوية التي كانت تحرم وتجرم كل تجارة مع المماليك، وهي التي دفعتهم كذلك إلى

معارضة مشروع الملك بطرس الرامي الى مهاجمة المدن المملوكية، وذلك خوفا من تعرض تجارتهم لانتقام السلطات المملوكية. كما أن خضوع الجزيرة لسيطرة المماليك في عهد السلطان برسباي كان له تأثير إيجابي على مستوى العلاقات التجارية ما بين الدولتين؛ فقد عرفت البضائع والسلع القبرصية طريقها للأسواق المصرية والسورية بمستوى متنام ومتزايد عن الفترات السابقة، كما اتسمت تلك البضائع بالوفرة والتنوع.

** ** **

Trade Relations between the Mamluk Sultanate and the island of Cyprus

The island of Cyprus has played a very important role in the events of the Crusades since the beginning of the 13th century, after the Lusignan family managed to reach power. These leaders were responsible for supporting the Crusaders residing in Syria, and providing them with the soldiers and products they needed. The island was then the main point for the crusaders heading towards the Syrian coast. For their part, the Mamluk sultans had known the dangers that this island represented against their properties, for this reason, sultan Baybars began early his project to conquer and control the island, but this attempt was unsuccessful. On the other hand, after the Mamluks managed to seize Acre, the leaders of Cyprus opened the doors of their island to the expelled crusaders of the Syrian coast, and consequently this island became the main center of the movement of “Crusades” throughout the fourteenth and fifteenth centuries.

Anyway, despite the skirmishes between the Mamluk Sultanate and the island of Cyprus, the relations between the two sides were not always hostile, but sometimes there was convergence between them, depending on the circumstances. The most important factor in this rapprochement is undoubtedly the commercial interests, and the huge profits made through trade between the two parties. The desire not to lose these profits then pushed the Cypriot traders to violate the orders of the popes, who forbade any trade with the Mamelukes, and who, on the other hand, led them to oppose the project of King Pierre I to attack the Mamluk cities, because they feared the violent measures that the Mamluk authority would take against their trade in Egypt and Syria. In addition, after the island became under the control of the Mamluks, during the reign of Sultan Barsbay, a stage of prosperity had begun between the two countries in terms of trade relations.

لعبت جزيرة قبرص دورا مهما ومؤثرا في أحداث الحروب الصليبية مع بدايات القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وذلك عندما تمكنت أسرة لوزجنان الصليبية من الوصول للحكم، وهو الأمر الذي أعطى لهذه الجزيرة مزيدا من الأهمية السياسية والتجارية في ذلك الوقت[١]. فقد أخذ حكام تلك الأسرة على عاتقهم مهمة دعم الصليبيين المقيمين بالشام بما يحتاجونه من مؤن ومحاربين، خاصة بعد أن أصبح هؤلاء الحكام كذلك ملوكا على "مملكة بيت المقدس الصليبية". كما أن الجزيرة أصبحت آنذاك محطة رئيسة للحملات الصليبية والجماعات المسيحية المتجهة إلى الشرق الإسلامي[٢]. وفي السياق ذاته، يؤكد اديوري على أن الملوك اللوزجانيين كرسوا معظم قوتهم العسكرية وإمكانياتهم المادية للدفاع عن الممتلكات المسيحية الباقية على الساحل الشامي، ومحاولة استرداد الأماكن المقدسة[٣]. والواقع أن سلاطين المماليك–

---

١ في عام ١١٩١م، وأثناء توجهه للشرق الإسلامي على رأس الحملة الصليبية الهادفة لاستعادة بيت المقدس، تمكن ملك انجلترا ريتشارد الأول (قلب الأسد) من اخضاع قبرص لسيطرته، عقب إلحاقه الهزيمة بالحاكم البيزنطي لتلك الجزيرة اسحق كومنين. ثم قام الملك الانجليزي ببيعها عام ١١٩٢م لفرسان الداوية مقابل مائة ألف بيزات، بيد أن هؤلاء– ونظرا للعقبات التي واجهوها– لم يريدوا الاستمرار بقبرص، وأعادوها مرة أخرى لريتشارد، الذي قام هذه المرة ببيعها لجاي لوزجنان مقابل ستين ألف بيزات، ذهبت للداوية مقابل المبلغ الذي كانوا قد دفعوه لريتشارد، كما أن جاي تنازل عن حقه في مملكة بيت المقدس. وهكذا قامت الدولة اللوزجنانية بجزيرة قبرص، التي استمر حكمها قرابة الثلاثة قرون (١١٩٢م–١٤٧٢م)، والتي قدر لها أن تلعب دورا كبيرا في أحداث ومجرى الحروب الصليبية. أنظر: سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب–القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٢٧–٢٨، ٣١–٣٢؛ بيتر اديوري، قبرص والحروب الصليبية، دار الملتقى للطباعة والنشر–بيروت، ط ١، ١٩٩٧م، ص ١٦–٢٠.

٢ سعيد عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصرية للتأليف والترجمة–القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٥٢؛ بيتر اديوري، المرجع السابق، ص ٥، ٦٩.

واقع الأمر، أن حكام قبرص نالوا لقب ملك "مملكة بيت المقدس" منذ عام ١٢٤٦م؛ فقد كان من المعتاد بعد وصول أحد أفراد أسرة لوزجنان للحكم بقبرص، أن يتم تتويجه بمدينة نيقوسيا، ثم يذهب بعد ذلك إلى مدينة فاماجوستا ليتوج كذلك بلقب حاكم "مملكة بيت المقدس". أنظر:

P. Alphandéry, La Chrétienté et l'idée de croisade (XIIe-XIIIe siècles), éd. Albin Michel, Paris, 1971, p. 207

٣ بيتر اديوري، المرجع السابق، ص ٦٩.

مثلما تذكر المصادر العربية– كانوا يعون تماما الخطر الذي باتت تمثله قبرص بمساعداتها للامارات الصليبية ببلاد الشام، كما حدث أثناء حصار السلطان المنصور قلاوون لمدينة طرابلس عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م[٤]، وكما حدث كذلك أثناء محاصرة الأشرف خليل بن قلاوون لعكا– آخر معاقل الصليبيين بالشام– عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م[٥].

من ناحية أخرى، فإنه بعد نجاح المماليك في الاستيلاء على عكا، وطرد الصليبيين من الساحل الشامي، فإن حكام قبرص قاموا بفتح أبواب جزيرتهم أمام هؤلاء الفارين، وبفضل موقعها الاستراتيجي المطل على السواحل السورية والمصرية، فقد أصبحت هذه الجزيرة هي المركز الرئيس للحركة الصليبية طوال القرنيين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين[٦]. وقد عانت المدن الساحلية في مصر وسوريا كثيرا من الهجمات وأعمال القرصنة التي كان تقوم بها السفن القبرصية، والتي كانت تؤدي إلى تدمير وحرق ونهب تلك المدن، فضلا عن أسر كثير من المسلمين ونقلهم إلى قبرص، وقد ذكرت لنا المصادر العربية كثيرا من تلك الحوادث، بحيث إنه لم تكن تمر سنة دون ذكر هجوم قبرصي أو"افرنجي" على السواحل المملوكية[٧]. ولعل تلك الأخطار والتهديدات التي باتت

---

[٤] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (تحقيق) محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٩٩٧م، ٢/٢١١.

[٥] المقريزي، المصدر السابق، ٢/٢٢٣–٢٢٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (قدم له وعلق عليه) محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٩٩٢م، ٨/٥–٦.

[٦] سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، ص هـ.

[٧] المقريزي، المصدر السابق، ٢/٣٤٨، ٤٢٥–٤٢٦، ٤٦٨؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، (حققه) عدنان درويش، دمشق، ١٩٩٤م–١٩٩٧م، ٢/٩٧، ٣/١١١–١١٢؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، (تحقيق) حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي–القاهرة، ١٩٧٢م، ١/٢٦٨، ٢/١٢٧، ٥/١٣٣؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب العلمية–بيروت، ٢٠٠٤م، ٣١/٢٣٧؛ صالح بن يحيي، تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، نشره وعلق عليه: لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية–بيروت، ١٨٩٨م، ص ٤٨، ٥١–٥٢، ٥٦؛ ابن سباط، تاريخ ابن سباط، (تحقيق) عمر عبد السلام تدمري، جروس برس–طرابلس، ١٩٩٣م، ٢/٧١٤؛

تشكلها قبرص ضد دولة المماليك ومصالحها هي التي دفعت السلطان الظاهر بيبرس مبكرا- تحديدا عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م- إلى تجهيز عدد من الشواني[٨]، من أجل مهاجمة وإخضاع تلك الجزيرة. وإذا كانت تلك المحاولة لم يقدر لها النجاح، بعد أن كسرت الرياح معظم تلك الشواني بالقرب من الساحل القبرصي، وقيام القبارصة بأسر كل من فيها من الرجال[٩]، فإن السلطان الأشرف برسباي- الذي لم يغب عن ناظريه الدمار الذي لحق بالأسكندرية على يد الملك القبرصي بطرس الأول عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م- حقق نجاحا كبيرا من خلال الحملات الثلاث التي توجهت إلى قبرص خلال الفترة من ٨٢٧هـ/١٤٢٤م إلى ٨٢٩هـ/١٤٢٦م، والتي أخضعت تلك الجزيرة بصورة فعلية لسلطة المماليك، وألزمت حكامها بحمل ضريبة سنوية للقاهرة[١٠].

مهما يكن من أمر، فبالرغم من الروح العدائية والمناوشات التي كانت سائدة ما بين سلطنة المماليك وجزيرة قبرص، إلا أن العلاقات ما بين الطرفين لم تكن عدائية على طول الخط، وإنما كانت تشهد أحيانا تواصلا وتقاربا بحسب مقتضيات الظروف. ولعل العامل والسبب الأهم في هذا التقارب تمثل في المصالح التجارية، والأرباح الطائلة التي كانت تتحقق من وراء تبادل البضائع التجارية بين الجانبين. والواقع أن

N. Jorga, Philippe de Mézières (1327-1405) et la croisade au XIV^e siècle, éd. Honoré Champion, Paris, 1976, p. 35.

٨ الشواني مفردها شيني، وتعد من أقدم أنواع السفن. وقد كانت في العصور الوسطى تمثل أهم القطع التي يتألف منها الأسطول الإسلامي، وذلك بسبب كبر حجمها، وقدرتها على حمل عدد كبير من الجنود. وقد كانت الشيني تسير بمائة وأربعين مجدافا على أكثر تقدير، كما كانت تحمل حوالي مائة وخمسين من المقاتلة والبحارة. أنظر: ابن مماتي، كتاب قوانين الدواوينين، (تحقيق) عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي-القاهرة، ١٩٩١م، ص ٣٤٠؛ سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر-القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٣٥٢.

٩ المقريزي، المصدر السابق، ٧١/٢؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ١٣٩/٧؛ النويري، المصدر السابق، ١١٥/٣٠؛ النويري الأسكندراني، كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الأسكندرية، (تحقيق) عزيز سوريال عطية، مطبعة دائرة المعارف العثمانية-حيدر أباد، ١٩٧٠م، ٩٦/٤-٩٧.

١٠ عن أحداث ونتائج هذه الحملات، أنظر: المقريزي، المصدر السابق، ١٠٠/٧ وما بعدها ؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ١٠٥/١٤ وما بعدها.

هذا التداخل ما بين الصراع السياسي الديني من ناحية، والتقارب التجاري الاقتصادي من ناحية أخرى، لم يكن غريبا على تلك الحقبة الزمنية من الحروب الصليبية، ولعل المدن التجارية الغربية، وفي مقدمتها البندقية وجنوة، تعطينا نموذجا واقعيا لهذا الأمر، وكيف أن التجارة لعبت دورا مهما في التأثير على وجهة الحروب الصليبية، كما حدث أثناء الحملة الرابعة عام ١٢٠٤م، التي هاجمت ممتلكات الامبراطورية البيزنطية، بدلا من توجهها ناحية الأراضي المصرية والشامية.

وعلى ذلك، تأتي هذه الدراسة كمحاولة لإلقاء مزيد من الضوء عن الدور الذي لعبته المصالح التجارية في فترة الحروب الصليبية، من خلال التعرض للعلاقات التي ربطت بين دولة المماليك وقبرص، وذلك من خلال الإجابة على عدد من التساؤلات، أهمها: ما هو موقف قبرص من علاقاتها التجارية مع المماليك بعد انهيار الوجود اللاتيني ببلاد الشام عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م، وصدور التحريمات البابوية الصارمة التي تمنع كل تجارة مع الأراضي المملوكية ؟ ما مدى الاستفادة التجارية التي حققها القبارصة في علاقاتهم مع سلاطين مصر بعد توقف المدن الغربية من ارتياد السواحل المصرية والسورية ؟ ما مدى تأثير القرصنة التي كانت تقوم بها السفن القبرصية ضد السواحل المملوكية على تلك العلاقات ؟ هل أدت حملة بطرس لوزجنان ضد الأسكندرية عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م إلى توقف العلاقات نهائيا بين الجانبين، وما هي أهم البنود التجارية التي اشتملت عليها معاهددة الصلح ؟ ما هي الاستفادة التجارية التي تحققت لسلاطين مصر بعد سيطرتهم الفعلية على قبرص، في عهد الأشرف برسباي عام ٨٢٩هـ/١٤٢٦م ؟ ثم أخيرا ما هي أهم البضائع التجارية المتبادلة بين الجانبين ؟

١. موقف قبرص من المنشورات البابوية عقب سقوط عكا

أحدث سقوط سقوط عكا في يد المماليك عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م دويا هائلا في الغرب الأوربي، وللوهلة الأولى وجهت أصابع الاتهام في وقوع تلك الكارثة إلى المدن التجارية الغربية، التي كانت سببا بصراعاتها المتكررة في تفتيت قوة الصليبيين، كما أنها ظلت حتى اللحظة الأخيرة تقيم علاقات مع سلاطين مصر؛ فكانت تمدهم بما يحتاجون إليه من معدات حربية وأخشاب ورقيق، هذا فضلا عن إنعاشهم لخزينة هؤلاء السلاطين بالأموال الطائلة، من خلال عملياتهم التجارية داخل مصر وسوريا [١١]. من هذا المنطلق فقد أسرع البابا نيقولا الرابع إلى إصدار منشور ومرسوم بابوي يحرم فيه على جميع التجار المسيحيين الغربيين ارتياد الساحلين المصري والسوري لمدة عشر سنوات، وفي حالة انتهاك تلك الأوامر فإن الرمي بالحرمان سيكون مصير أولئك التجار الآثمين. ثم بعد مرور أربع سنوات على هذا المرسوم– وتحديدا في عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م– أصدر البابا بونيفاس الثامن منشورا آخر يؤكد فيه على استمرار تحريم نقل أي بضائع تجارية استراتيجية– كالحديد والأخشاب– إلى الأراضي المملوكية، كما أضاف هذا البابا في منشوره عقوبة أخرى تنزل بحق الخارجين على هذه الأوامر، وهي مصادرة أموالهم وبضائعهم [١٢].

ولعل الشيء الذي يمكن ملاحظته للوهلة الأولى من خلال تلك المنشورات هو التغير الذي طرأ على استراتيجية "الحرب الصليبية" في الغرب الأوربي؛ إذ لم تعد البابوية تدعو إلى إرسال حملات عسكرية باتجاه الشرق– وذلك في ظل انشغال القوى السياسية الأوربية بشئونهم الداخلية، وفتور الحماس للخروج في حملات محفوفة بالمخاطر– وإنما ظهرت فكرة "الحصار الاقتصادي" لدولة المماليك، انطلاقا من حقيقة مفادها أن التجارة كانت تمثل العمود

---

[١١] هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، (مراجعة وتقديم) عز الدين فوده، ٤ ج، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، ١٩٨٥-١٩٩٤م، ٣٦١/١-٣٦٢؛ بيتر اديوري، المرجع السابق، ص ٧٩-٨٠.

[12] N. Coureas, "Controlled Contact: The Papcy, the Latin Church of Cyprus and Mamluk Egypt, 1250-1350", in Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Ears, Vol. IV, Uitgeverij Peeters en Departement Oosterse Studies, Paris, 2005, p. 397; بيتر اديوري، المرجع السابق، ص ١٠٠-١٠٢

الفقري والدعامة الأساسية لاقتصاد دولة المماليك، وعلى ذلك فإن توقف تجار المدن الغربية عن ارتياد السواحل المصرية والسورية، وامتناعهم عن البيع والشراء في هذه المناطق، كان سيؤدي حتما لانهيار الاقتصاد المملوكي، ومن ثم إضعاف قدراتهم الحربية والعسكرية، مما يسهل من عملية "استرداد الأماكن المقدسة" [١٣].

بيد أن تلك الفكرة التي كانت تروج لها البابوية من أجل فرض حصار اقتصادي على السواحل المملوكية لم تكن لتأتي بثمارها إلا مع وجود قواعد صليبية في شرقي البحر المتوسط، تمكنها من مراقبة الشواطيء السورية، فضلا عن توافر أسطول حربي يقوم بالتصدي لأي سفينة تجارية غربية تحاول اختراق هذا الحظر، والوصول للسواحل السورية والمصرية. وقد ظهرت جزيرة قبرص بوصفها الحل الأمثل لتلك الاشكالية؛ لذلك وجدنا أسرة لوزجنان الصليبية– التي تحكم الجزيرة منذ أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي– تأخذ على عاتقها مهمة استقبال الصليبيين المطرودين من الساحل الشامي، عقب استيلاء المماليك على عكا [١٤]. كما أن هؤلاء الحكام أظهروا توافقا تاما مع التوجهات البابوية الرامية إلى ضرب اقتصاد سلاطين المماليك، وذلك بحرمانهم من البضائع الغربية، خاصة الاستراتيجية منها كالرقيق والحديد والأخشاب والأسلحة، بل إن تلك الجزيرة أصبحت لاعبا رئيسا في تلك الخطة؛ ففي عام ٦٩١هـ/١٢٩٢م أعد الملك القبرصي خمس عشرة سفينة حربية، انضمت إلى عدد آخر من السفن الغربية، وكان هدفها الأساسي مهاجمة مدينة الأسكندرية، والتصدي للسفن الغربية التي تحاول انتهاك الحظر البابوي[١٥]. هذا فضلا عن

---

[١٣] أحمد دراج، المماليك والفرنج، دار الفكر العربي-القاهرة، ١٩٦١، ص ٧.

[١٤] سعيد عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص ٥٢-٥٣؛ سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، ص ٥٣؛ بيتر اديوري، المرجع السابق، ص ٩٩-١٠٠؛
S. H. Luke, "The Kingdom of Cyprus, 1291-1369" in A History of the Crusades, Vol. 3, edited by: Harry Hazard, The University of Wisconsin Press, Wisconsin, 1975, p. 342.

[15] J. Richard, "Le royaume de Chypre et l'embargo sur le commerce avec l'Egypte, fin XIIIe-début XIV siècle", in Croisades et Etats latins d'Orient, Variorum, 1992, p. 123 ; بيتر اديوري، المرجع السابق، ص ١٠١

قيام الملك القبرصي هنرى الثاني بتقديم مشروع للبابوية، يقترح فيه الخطوات التي يجب اتخاذها من أجل إضعاف قوة المماليك، واسترداد الممتلكات الصليبية؛ مبرزا أهمية فرض حصار اقتصادي ضد السواحل المصرية والسورية لمدة سنتين أو ثلاث، شريطة ألا تشارك أساطيل المدن التجارية– كالبندقية وجنوة– في هذا الحصار، خاصة وأنها كانت سببا رئيسا– بأطماعها وصراعاتها– فيما حل بالصليبيين من كوارث في بلاد الشام[١٦].

مهما يكن من أمر، فإنه بعد مرور أقل من عقدين من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، لم تعد قبرص هي المتزعمة لمشروع الحصار الاقتصادي للسواحل المملوكية؛ فالمصادر الغربية تشير إلى أن عددا من التجار المسيحيين المقيمين بقبرص قد قاموا بمواصلة تجارتهم مع سلطنة المماليك، وارتياد السواحل المصرية والسورية، رغم الأوامر البابوية الصارمة التي تجرم هذا الأمر. والشيء الملاحظ كذلك هو أن تلك السفن لم تتورع عن حمل البضائع الاستراتيجية، كالحديد والخشب والمعدات الحربية[١٧]. كما أن تلك المصادر تؤكد كذلك أنه منذ بدايات القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي سعى التجار القبارصة للدخول في مناقشات ومفاوضات مع رجال الدين بالكنيسة اللاتينية بقبرص، من أجل الحصول على إذن ورخصة باستمرار تجارتهم مع المدن المملوكية.[١٨] وقد أشار أحد المؤرخين الغربيين إلى أنه في عام ٧١٤–٧١٥هـ/١٣١٥م تم إعداد وتجهيز ما يقارب عشرة سفن حربية، مهمتها الأساسية تمشيط الجزء الشرقي من مياه البحر المتوسط، والتصدي لأي

---

[16] P. Alphandéry, Op. cit., p. 240 ; سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، ص ٥٤

[17] J. Richard, Op. cit., p. 130 ; N. Coureas, "Latin Cyprus and the relations with the Mamluk Sultanate, 1250-1517", in The Crusader World, ed. A. Boas, London, 2016, p. 404; بيتر اديوري، المرجع السابق، ص ١٠٣

وقع الأمر هناك دلائل تشير إلى قيام جزيرة قبرص بمد السلطات المملوكية بالبضائع والمواد الاستراتيجية الحربية حتى قبل سقوط عكا بحوالي أربعين سنة؛ ففي عام ١٢٥١م صدرت أحد المنشورات من المطرانية اللاتينية بنيقوسيا ترمي بالحرمان كل التجار القبارصة الذين كانوا يحملون السلاح والحديد والأخشاب وغيرها من السلع الأخرى المجرمة إلى أراضي الدولة المملوكية، أو حتى أولئك الذين يعملون كمرشدين وملاحين على متن السفن الإسلامية. أنظر:

N. Coureas, Controlled Contact, p. 395-396.

[18] N. Coureas, Op. cit., p. 397-398.

سفينة غربية تحاول خرق التحريمات البابوية بالتجارة مع السواحل المصرية والشامية، وقد ذكر هذا المؤرخ صراحة أن أصابع الاتهام كانت تشير إلى التجار القادمين من جزيرة قبرص[١٩]. كما أن البابا يوحنا الثاني والعشرين قام في عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م بإصدار منشور طرد وحرمان بحق عدد من التجار القبارصة، الذين قاموا بانتهاك أوامر الكنيسة، ووصلوا ببضائعهم للسواحل المملوكية[٢٠]. وفي العام ذاته وجهت البابوية اتهامات لملك قبرص، بسبب عدم اتخاذه لإجراءات صارمة ورادعة لمنع تجار جزيرته من ارتياد الساحلين المصري والسوري[٢١]. كما أنه في عام ٧٢٤هـ/ يونيو ١٣٢٤م، دخل البابا يوحنا في مراسلات مع حاكم قبرص من أجل الغرض نفسه [٢٢]. والواقع أن المؤرخ Mas – Latrie يتحدث عن هذا الأمر بكثير من الحسرة، ذاكرا أن تلك البضائع الحربية والعسكرية التي حملها التجار –القبارصة لمصر وسوريا– ضاربين بالأوامر البابوية عرض الحائط– "كانت سببا يوما ما– أي في عهد السلطان برسباي– لخضوع الجزيرة لسلطة المماليك"[٢٣].

ثمة شيء آخر جدير بالملاحظة في هذا السياق، وهو أن تجار الغرب الأوربي كانوا يتخذون أحيانا من فاماجوستا وسيلة للتحايل على التحريمات البابوية، وذلك باتخاذ ميناء تلك المدينة كترانزيت، يستطيعون أن يتواصلوا من خلاله مع السواحل المملوكية [٢٤]. فهايد يشير إلى أن تجار البندقية، في السنوات التي وجدوا فيها موقفا صارما من جانب البابوية تجاه استمرار تجارتهم مع المدن المملوكية، لجأوا لاتخاذ قبرص كوسيط لنقل بضائعهم للسواحل المصرية والسورية [٢٥]. وقد

---

19 N. Coureas, Op. cit., p. 400.

20 N. Coureas, Op. cit., p. 400 ; J. Richard, Op. cit., p. ١٣٠.

21 J. Richard, Op. cit., p. ١٣٠.

22 Ibid.

23 M. de Mas-Latrie, Histoire de l'Ile de Chypre sous le règne de la maison de Lusignan, (3 Vol.), Paris, 1852-1855, 2/126.

24 E. Ashtor, Levant Trade in the Middle Ages, Princeton University Press, New Jersey, 1983, p. ٤٠; G. Depping, Histoire du commerce entre le Levant et l'Europe, Paris, 1830, 1/107.

٢٥ هايد، المرجع السابق، ٢٧٦/٢.

أشار إلى هذا الأمر كذلك المؤرخ صالح بن يحيي، الذي يذكر أن السفن التجارية الغربية ما لبثت أن استأنفت رحلاتها التجارية للساحل السوري– بعد أن توقفت لبعض الوقت عقب جلاء الصليبيين من الساحل الشامي–، وأن السفن البندقية كانت تصل بداية إلى جزيرة قبرص، ثم "يرسل صاحب قبرص بضائعهم في شونتين كانتا له إلى بيروت نقلة بعد أخرى" [٢٦]. كما أن الوثائق الغربية تشير إلى أنه في عام ٧٢٥هـ/١٣٢٥م قام أحد تجار برشلونة، ويدعى Jaume Dolvan، بالإبحار باتجاه فاماجوستا، وهناك قام بتفريغ البضائع التجارية التي أتى بها من بلاده، ثم قام باستئجار سفينة قبرصية حمل على متنها هذه البضائع، وتوجه بها إلى المواني‌ء المصرية والسورية. ولما قرر هذا التاجر– في العام التالي– مغادرة الأراضي المملوكية، فإنه قام بحمل البضائع التي تحصل عليها من الأسواق المصرية مرة أخرى إلى جزيرة قبرص، ثم أعاد شحنها من هناك إلى مدينة مايوركا الأسبانية [٢٧]. الأمر نفسه تكرر كذلك عام ٧٣٧–٧٣٨هـ/١٣٣٧م، عندما وصل أحد التجار البرشلونيين إلى فاماجوستا، ثم من هناك قام بنقل بضائعه إلى مدينة دمشق، وغيرها من المدن السورية الأخرى. وكعقوبة لمخالفة الأوامر الكنسية، فإن ملك أراجون قام بفرض غرامة مالية كبيرة على هذا التاجر [٢٨].

مهما يكن من أمر، فإن الأوضاع ما لبثت أن شهدت تغيرا ملحوظا مع دخول العقد الثالث من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي؛ إذ أظهرت البابوية تساهلا كبيرا بشأن ممارسة التجارة مع أراضي الدولة المملوكية؛ ففي المراسلات التي دارت آنذاك بين البابوية وحكام قبرص، لم تعد الفكرة الأساسية تدور حول منع هؤلاء الحكام لرعاياهم من ارتياد السواحل المصرية والسورية، والعقوبات التي تنتظر المخالفين، وإنما أصبحت تدور حول سماح الكنيسة لنبلاء وتجار الجزيرة بالوصول إلى تلك الأراضي الإسلامية، شريطة ألا يحملوا معهم "البضائع المجرمة"، التي تشتمل على الحديد

---

[٢٦] صالح بن يحيي، المصدر السابق، ص ٥٩.

[27] Mas-Latrie, Op. cit., 3/720-722 ; J. Richard, Op. cit., p. 126.

[28] Mas-Latrie, Op. cit., 3/734 ; J. Richard, Op. cit., p. 126.

والأخشاب[٢٩]. وحتى مع تلك التسهيلات الجديدة، فإن التجار القبارصة لم يلتزموا بهذا الشرط، واستمروا في حمل تلك البضائع الحربية للدولة المملوكية، وهو الأمر الذي تؤكده تلك الأموال الضخمة التي كانت تجبيها الكنيسة– كعقوبة وغرامة– من هؤلاء التجار[٣٠]. فعلى سبيل المثال، قام البابا كليمنت السادس في عام ٧٤٣-٧٤٤هـ/١٣٤٣م بمنح مطران بافوس– المسئول عن جمع الضرائب الكنسية بقبرص– الإذن بإعفاء التجار القبارصة– المتهمين بنقل بضائع محظورة إلى الأسكندرية– من عقوبات الطرد والحرمان، وذلك مقابل دفع مبالغ مالية كبيرة[٣١]. وفي عام ٧٥١هـ/أغسطس ١٣٥٠م، سمح هذا البابا كذلك لملك قبرص هيو الرابع بإرسال سفينتين تجاريتين إلى مدينة الأسكندرية، وغيرها من مدن الساحل المملوكي، وقد بلغت مدة هذا الإذن خمس سنوات[٣٢].

٢. الأزدهار التجاري لقبرص وتقوية علاقاتها التجارية مع مصر وسوريا

حقيقة الأمر، أنه طوال الفترة التي فرض فيها الصليبيون نفوذهم وسيطرتهم على الساحل السوري، كانت التجارة الغربية مع الشرق متمركزة على هذا الساحل، ولم يكن لجزيرة قبرص آنذاك حضور تجاري كبير؛ إذ اقتصر دورها على كونها محطة وسطى، ذات دور وأهمية ثانوية[٣٣]. بيد أن الأمور ما لبثت أن شهدت تحولا كبيرا عقب سقوط عكا، وجلاء الصليبيين من الأراضي السورية؛ فهذا الوضع الجديد منح تلك الجزيرة الصغيرة أهمية كبيرة من الناحية التجارية؛ فقد أصبحت قبرص تمثل نقطة ارتكاز، ومحور رئيسي للتجارة في منطقة البحر المتوسط، بحيث إن معظم السفن التجارية الغربية– سواء أكانت كبيرة أم صغيرة– كان يلزمها أن تحط رحالها بسواحل تلك الجزيرة، قبل أن تواصل إبحارها ورحلتها للشرق أو الغرب، كما أن قبرص أصبحت من الآن فصاعدا مخزنا رئيسا لبضائع الشرق، وفي مقدمتها التوابل[٣٤]. من جانبهم، استطاع حكام تلك

---

[29] J. Richard, Op. cit., p. ١٣; بيتر اديوري، المرجع السابق، ص ١٢٠

[30] J. Richard, Op. cit., p. 133.

[31] N. Coureas, Latin Cyprus, p. 405.

[32] N. Coureas, Controlled Contact, p. 407.

[٣٣] هايد، المرجع السابق، ١٢/٢.

[34] Ludolph de Sudheim, "Le chemin de la Terre sainte", in Croisades et Pèlerinages : Récits, chroniques et voyages en Terre sainte XIIe-XVIe siècle,

الجزيرة من أسرة لوزجنان أن يستفيدوا من تلك اللحظات الدقيقة التي كان يمر بها الغرب الأوربي؛ فعملوا على استثمار التحريمات الكنسية الصارمة ضد ممارسة التجارة مع الممتلكات المملوكية، ونجحوا في جعل مملكتهم هي المركز التجاري الأكثر أهمية في المنطقة[٣٥].

ففي مؤلفه الشهير الذي يتحدث فيه عن تاريخ جزيرة قبرص، يؤكد المؤرخ Machéras أن الثروة الكبيرة التي أصبح يمتلكها معظم التجار داخل مدينة فاماجوستا إنما يعود الفضل فيها للأهمية التجارية المتزايدة لقبرص، خاصة بعد انهيار الوجود الصليبي، وتوجه التجار الغربيين إليها للحصول على ما يحتاجونه من سلع وبضائع الشرق. وبناء على ذلك، فقد استفادت تلك الجزيرة كثيرا من تلك التغيرات، وأصبحت عاصمتها التجارية– فاماجوستا– واحدة من أكثر مدن المنطقة أهمية[٣٦]. والواقع أن هذا المؤرخ يشير كذلك إلى أن البابوية كانت تطلب صراحة من رعاياها المسيحيين التوجه بتجارتهم إلى قبرص، فهذا الأمر "سيساعد السكان الفقراء في تلك الجزيرة، الذين يقيمون على صخرة من البحر، في مواجهة الأعداء من المسلمين"[٣٧]. وهناك شهادة أخرى من الرحالة *Ludolph de Sudheim*، الذي يذكر أنه بفضل حركة التجارة النشطة داخل قبرص، والأرباح الطائلة التي كان يحققها

Edition établie sous la direction de Danièlle Régnier Bohler, Paris, 1997, p. ١٠٥٢; Mas-Latrie, Op. cit., 1/511 ; J. Day, "The Levant Trade in the Middle Ages", in The Economic History of Byzantium : From the seventh through the fifteenth Century, Dumbarton Oaks, Washington, 2002, p. 808 ; N. Coureas, "The Lusignan Kingdom of Cyprus and the Sea, 13th –15th Centuries", in The Sea in History, The Medieval World, Edited by: Michel Balard, ed. The Boydell Press, 2017, p. 369; N. Jorga, Op. cit., p. 86.

35 A. Atiya, Crusade, commerce and culture, Indian University Press, Bloomington, 1962, p. 171; هايد، المرجع السابق، ٢/٢٣٠؛ بيتر اديوري، المرجع السابق، ص ١٢١-١٢٢

36 L. Machéras, Chronique de Chypre, Traduction française par E. Miller, Paris, **1882**, p**. 51-52**.

37 L. Machéras, Op. cit., p. 52.

تجار تلك الجزيرة، فإنهم أصبحوا بحق "من أكثر الناس غنى في العالم كله"[٣٨]. كما أن أحد الحجاج الأنجليز، الذي مر بقبرص خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي وهو في طريقه لزيارة الأماكن المقدسة بالشرق، تحدث عن الازدهار الكبير الذي كانت عليه فاماجوستا، ذاكرا أنه بداخل تلك المدينة كان يوجد خليط من التجار القادمين من شتى البلدان؛ فهناك البنادقة والجنويون والقطالونيون، وكذلك المسلمون *Saracens* القادمون من أراضي السلطان المملوكي[٣٩]. من جانبه، فإن النويري الأسكندراني أشار في مؤلفه– الذي أرخ فيه لحملة بطرس ضد الأسكندرية– إلى النشاط التجاري الملحوظ داخل قبرص، منوها عن كثرة الأسواق والحوانيت والخانات الموجودة بمدنها[٤٠].

والذي لا شك فيه أن جزءا كبيرا من هذا الثراء الذي كانت عليه قبرص في ذلك الوقت إنما يعود إلى العلاقات التجارية المميزة التي ربطت بينها وبين سلطنة المماليك، التي كانت تعد بمثابة مخزن لتجارة الشرق؛ فكل تجارة سوريا الشهيرة كان ينتهي بها المطاف إلى هذه الجزيرة. والواقع أن الموقع الجغرافي لقبرص وقربها من السواحل السورية– فالمسافة بينهما لا تزيد عن ستين ميلا– لعب دورا مهما في تقوية وتعزيز تلك العلاقات التجارية[٤١]. ولعل مما يؤكد حجم التجارة الكبير بين قبرص من ناحية ومصر وسوريا من ناحية أخرى ما يذكره فيليب دي مزيير *Philippe de Mézières*– مستشار الملك بطرس الأول– من أنه سنويا كان يصل

---

[38] Ludolph de Sudheim, Op. cit., p. ١٠٥٢.

[39] S. H. Luke, Op. cit., p. 350.

[٤٠] النويري الأسكندراني، المصدر السابق، ٣/٩٩-١٠٠.

[41] Mas-Latrie, Op. cit., 1/511 ; G. Depping, Op. cit., 1/106-107 ; A. Atiya, Op. cit., p. 172 ; B. Arbel, "The last Decades of Venice's Trqde with the Mamluk: Importations into Egypt and Syria", in Mamluk Studies Review, VIII (2), Middle East Documentation Center, The University of Chicago, 2004, p. 65.

يذكر أشتور أن الثقل التجاري الأكبر لجزيرة قبرص كان ببلاد الشام؛ حيث كان تجار تلك المدينة دائما ما يأتون بتجارتهم إلى المدن السورية، بسبب قرب المسافة بين المكانين، وذلك بعكس تجار جزيرة كريت، الذين كانوا يتوجهون بصفة خاصة إلى مدينة الأسكندرية وغيرها من الموانيء المصرية الأخرى. أنظر: E. Ashtor, Op. cit., p. 39.

من السواحل المصرية والسورية إلى ميناء فاماجوستا كثير من السفن التجارية الكبيرة والصغيرة، التي يتراوح عددها ما بين الستين والمائة، وأن كل واحدة منها كانت تحمل بضائع تصل قيمتها في المتوسط إلى مائة ألف *Florins* (عملة ذهبية تعود إلى مدينة فلورنسا الإيطالية انتشرت في أوروبا في العصور الوسطى)، ويضيف دي مزيير أن هذه البضائع كانت تشتمل على الذهب والأحجار الكريمة والتوابل والأقمشة المطرزة بالذهب والحرير[٤٢]. وفي معرض حديثه عن مكانة مصر التجارية بوصفها "قرضة بحر الروم"، يذكر النويري أنها كانت قبلة للسفن التجارية القادمة من بلدان الشرق والغرب، ومنها جزيرة قبرص[٤٣]. أما التاجر الأوربي الشهير إيمانويل بيلوتي– الذي عاش بمصر فترة طويلة– فيذكر أن تجار بيروت وطرابلس كانوا يجتازون البحر على ظهر سفنهم باتجاه فاماجوستا، حيث كانوا يبيعون هناك بضائعهم الشهيرة، وبصفة خاصة التوابل والقطن السوري ذي الجودة العالية، ثم يعقب قائلا: " وهذه كانت الفترة الأكثر ازدهارا لمدينة فاماجوستا"[٤٤].

مما سبق يتضح جليا أن فاماجوستا– بفضل موقعها المميز على الساحل الشرقي لقبرص– كانت تمثل آنذاك المدينة التجارية الأكثر أهمية داخل تلك الجزيرة، والتي ارتبطت بعلاقات وثيقة مع السواحل السورية والمصرية، مما جعلها مركزا لكل منتجات الشرق[٤٥]. ويبدو أن تجار تلك المدينة قد حققوا أرباحا طائلة من وراء عملياتهم وصفقاتهم التجارية مع المدن المصرية والسورية؛ فقد أشار المؤرخون القبارصة إلى أن واحدا من أولئك التجار، ويدعى سيميون، قد خصص قيمة عشر الأرباح التي حققها بتجارته مع مصر لبناء واحدة من أجمل الكنائس داخل فاماجوستا، وهي كنيسة القديس بطرس[٤٦]. كما أن تاجرا آخر من هذه المدينة– ويدعى *Stephen de*

---

[42] Mas-Latrie, Op. cit., 2/390.

[٤٣] النويري الأسكندراني، المصدر السابق، ٦/٤-٧.

[44] E. Piloti, L'Égypte au commencement du XV[e] siècle d'après le traité d'Emmanuel Piloti de Crète, Le Caire, 1932, p. 54.

[٤٥] هايد، المرجع السابق، ٢/٢٣٤-٢٣٥؛ N. Coureas, Latin Cyprus, p. 405

[46] Mas-Latrie, "Des relations politiques et commerciales de l'Asie Mineure avec l'île de Chypre, sous le règne des princes de la maison de Lusignan

Lusignan– استطاع من خلال رحلة تجارية واحدة باتجاه الساحل السوري أن يحقق أرباحا طائلة، خصص جزءا منها لبناء كنيسة القديس بول بالمدينة [٤٧].

على أية حال، فإن عملية التبادل التجاري بين سلطنة المماليك وجزيرة قبرص لم تقتصر على مدينة فاماجوستا فحسب– وذلك رغم التأكيد على أنها كانت المدينة التجارية الأكثر أهمية على السواحل القبرصية– وإنما هناك مدن أخرى لعبت كذلك دورا مهما في تعزيز تلك العلاقات؛ فكانت تنطلق منها القوافل التجارية المتجهة إلى السواحل السورية والمصرية، ويأتي في مقدمتها ليماسول وبافوس ولارناكا[٤٨].

٣. دور "المصالح التجارية" في حملة بطرس لوزجنان على الأسكندرية

يلزم التأكيد بداية على أن الملك هيو الرابع، الذي سبق ابنه بطرس الأول في حكم قبرص، لم يفكر في محاولة الدخول في عداء مع الدولة المملوكية، لاسيما بعد أن نجح سلاطين مصر في الاستيلاء على مدينة أياس الأرمينية [٤٩]– التي كان يمثل ميناؤها أهمية كبيرة للجزيرة من الناحية التجارية– ومن ثم فقد أصبحت قبرص تعتمد إلى حد كبير على الموانيء الخاضعة لسلطة المماليك، من أجل الحصول على سلع وبضائع الشرق. وعلى ذلك، فالدخول في حرب مع هؤلاء السلاطين لم يكن يمثل خطورة على حاكم الجزيرة من الناحية العسكرية فحسب، بل كان يعني له ولبلاده كذلك كارثة محققة من الناحية الاقتصادية. من هذا المنطلق فإنه يمكننا تفهم الموقف الذي أظهره هيو الرابع، عندما طلب من البابا بندكت الثاني عشر– عام ٧٦٧هـ/١٣٥٦م– وقف دعوته لحملة صليبية جديدة داخل قبرص، وذلك "لاجتناب إثارة عداء السلطان" [٥٠].

(deuxième article)", in Bibliothèque de l'école des chartes, Vol. 6, N. 1, 1845, p. 489 ; G. Depping, Op. cit., 1/106.

[47] A. Atiya, Op. cit., p. 172.

[48] Mas-Latrie, Op. cit., p. 489.

[٤٩] أياس كانت هي الثغر والميناء الأكثر أهمية لأرمينية الصغرى على سواحل البحر المتوسط، وقد تعرضت هذه المدينة لهجمات عديدة من قبل الجيش المملوكي، ولعل أعنفها كانت على عهد السلطان الظاهر بيبرس عام **٦٧٣هـ/١٢٧٥م**؛ حيث نهبت وأحرقت المدينة، وقتل كثير من أهلها. أنظر: المقريزي، السلوك، ٢/٩٠.

[٥٠] بيتر اديوري، المرجع السابق، ص ١٣٦-١٣٧.

بيد أنه بوصول بطرس لوزجنان لكرسي الحكم في قبرص عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م بدأت مرحلة جديدة من العلاقات بين هذه الجزيرة وسلطنة المماليك؛ فهذا الملك أراد إحياء "الحروب الصليبية"، التي كانت قد فقدت الكثير من جذوتها، كما كان لديه معتقد مفاده: أن مفاتيح "الأرض المقدسة" إنما هي في مصر، وأنه لن يتمكن الغرب الأوربي من استرداد تلك الأراضي ما لم يقهروا بداية قوة المماليك بمصر. ورغم أن ملوك قبرص السابقين كانوا دائما ما يطالبون بحكم بيت المقدس، بصفتهم الوريث الشرعي لهذا العرش، إلا أن بطرس ظل هو الوحيد الذي عمل على تطبيق هذه الفكرة على أرض الواقع، من خلال الحملة التي قادها ضد الأسكندرية عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م [٥١]. ومن أجل الإعداد لهذا المشروع، خرج بطرس من قبرص بين عامي ٧٦٠-٧٦١هـ/١٣٥٩م و٧٦٤هـ/١٣٦٣م في زيارة إلى البابوية ومعظم المدن الأوربية، داعيا الملوك والأمراء لمساعدته بالأموال والمحاربين، من أجل الخروج في حملة صليبية كبرى باتجاه السواحل المصرية. بيد أن الظروف التي كان يمر بها هؤلاء الحكام منعتهم من تقديم مساعدات ذات قيمة كبيرة لبطرس، وظلت كلمات التشجيع والثناء هي النتيجة الأهم التي خرج بها الملك القبرصي من وراء تلك الزيارات[٥٢].

مهما يكن من أمر، فإن المصادر التاريخية المعاصرة تؤكد على أن تلك الحملة العسكرية لم تجد لها تأييدا من قبل تجار الجزيرة، فضلا عن عدد كبير من الأمراء، الذين كانوا يخشون من التأثير السلبي لهذه الحملة على تجارتهم داخل أراضي السلطان المملوكي[٥٣]. فيذكر Machéras أن سكان مدينة فاماجوستا لما علموا بأن وجهة أسطول الملك القبرصي هي الساحل السوري- وكان الملك قد أخفى أن هدفه هو الأسكندرية- انتاب هؤلاء السكان قلقا وخوفا كبيرا على تجارتهم، وأبدوا معارضة

---

[٥١] حسن حبشي، "هجوم القبارصة على الأسكندرية"، مقال بالمجلة التاريخية المصرية، العدد ١٥، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ٢-٣.

[52] Mas-Latrie, Histoire de l'île de Chypre, t. II, p. 239-241 ; P. Rousset, Histoire d'une idéologie (La croisade), Lausanne, **1983**, p. **144** ; A. Blondy, Chypre, éd. Presses universitaires de France, Paris, **1998**, p. **72**.

[53] N. Jorga, Op. cit., p. 386.

لهذا الأمر، خاصة وأن تجارهم كانوا قد اشتروا من الأسواق السورية كميات كبيرة من البضائع، وفي حالة تعرض الساحل السوري لهجمات الأسطول الحربي القبرصي، فإن السلطات المملوكية كانت بلا شك ستضع يدها على تلك البضائع[٥٤].

أما في مرحلة ما بعد الهجوم القبرصي ضد الأسكندرية، فإن المدن التجارية الغربية عامة، وفي مقدمتهم البندقية وجنوة، قاموا ببذل مجهودات كبيرة من أجل إبرام الصلح بين سلطان مصر وملك قبرص، خاصة وأن تلك المدن كانت هي الخاسر الأكبر من وراء هذا الأمر؛ فكرد فعل أولي لما حدث، قام السلطان المملوكي بإصدار أوامره بإلقاء القبض على كل الأوربيين المقيمين في أراضيه، ومصادرة كل تجارتهم وأموالهم[٥٥]. من هذا المنطلق، فقد وجدنا البنادقة والجنويين يراسلون البابا ويلتمسون منه التدخل، لحث الملك القبرصي على الدخول في معاهدة سلام مع سلطان مصر[٥٦]. بيد أن الأمر لم يقتصر على هاتين المدينتين الإيطاليتين فحسب، بل وجدنا تجار فاماجوستا أنفسهم كانت لديهم رغبة أكيدة في إبرام هذا الصلح، حتى أن عددا من كبار تجار تلك المدينة قد استقبلوا الرسل القادمين من القاهرة، في جمادى الأولى ٧٧١هـ/ديسمبر ١٣٦٩م، وتوجهوا معهم إلى مقر الملك القبرصي بنيقوسيا، من أجل عقد بنود الصلح[٥٧].

والواقع أن هناك بعض الآراء التي تذهب إلى القول بإن تلك الحملة العسكرية، التي قام بها الملك بطرس ضد مدينة الأسكندرية، إنما ترتبط بمصالح وأهداف تجارية أكثر من كونها حملة صليبية، تسعى لاسترداد "الأماكن المقدسة"؛ فالمنشورات البابوية المتعددة التي أعقبت سقوط عكا كانت قد ساهمت كثيرا في ازدهار تجارة قبرص، وجعلها وجهة تؤمها معظم السفن الغربية، الراغبة في الحصول على تجارة الشرق، كما وسبق بيانه وإيضاحه، بيد أن هذا الأمر لم يستمر سوى سنوات معدودة؛ إذ سرعان ما عادت المدن التجارية الغربية– وفي مقدمتها البندقية– لمواصلة علاقاتها التجارية مع مصر

---

[54] L. Machéras, Op. cit., p. 92.

[٥٥] المقريزي، المصدر السابق، ٤/٢٨٤–٢٨٥؛ ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (تحقيق) محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب–القاهرة، ١٩٨٣–١٩٨٤، ج ١، ق ٢، ص ٢٣.

[56] L. Machéras, Op. cit., p. 220-221.

[57] L. Machéras, Op cit., p. 169.

وسوريا، منتهكة تلك التحذيرات البابوية، ولا شك أن هذا الأمر قد ألحق خسارة كبيرة بتجارة قبرص، وأدى إلى انخفاض الايرادات الملكية. وعلى ذلك فإن بطرس لوزجنان أراد أن يوجه ضربة انتقامية لتجارة واقتصاد المماليك، من خلال مهاجمة مدينة الأسكندرية، التي كانت تعد العاصمة التجارية الأولى لمصر في ذلك الوقت، وأن حصوله عليها كان سيجعله متحكما في التجارة ما بين الشرق والغرب، كما أن بطرس ربما كان يسعى كذلك للحصول على امتيازات تجارية لجزيرته، لا تقل عن تلك التي كانت تتمتع بها المدن التجارية الإيطالية في مصر وسوريا [٥٨].

مهما يكن من أمر، فإن الحملة العسكرية التي قادها الملك بطرس ضد الأسكندرية، وإن كانت قد ألحقت خسارة كبيرة بتلك المدينة، التي ظلت تعاني لسنوات عديدة من أثر هذا الهجوم، وإن كانت كذلك قد هددت وجود التجار الغربيين بمصر، وألحقت بهم خسائر كبيرة في بضائعهم وأموالهم [٥٩]، إلا أن الصلح الذي تم بين الطرفين عام ٧٧١هـ/١٣٧٠م أعاد الأوضاع إلى سابق عهدها، وعاد

---

58 Mas-Latrie, Op. cit., 2/**347**; L. Northrup, "The Bahri Mamluk Sultanate, 1250-1390", in The Cambridge History of Egypt, Vol. I, Edited by: Carle Petry, Cambridge University Press, **2008**, p. **285-286**; B. Arbel, "Venetian Cyprus and the Muslim Levant, **1473-1570**", in Cyprus and the Crusades, Nicosia Cyprus Research Center, **1995**, p. **159** ; N. Coureas, Latin Cyprus, p. **406**; M. Ouerfelli, "Les relations entre le royaume de Chypre et le Sultanat Mamelouk au XVe siècle", in Le Moyen-Âge, revue d'histoire et de philologie, tom. CX, N. 2, Bruxelles, 2004, p. 340-341; **بيتر ادبوري**،المرجع السابق، ص ١٥٢

جدير بالذكر أن البابا كليمنت السادس هو الذي قام بإلغاء المراسم التي كانت تحرم التجارة بين مدن الغرب الأوربي وأراضي الدولة المملوكية، وذلك عام ١٣٤٤م، وهو الأمر الذي أدى إلى مغادرة السفن البندقية والجنوية والقطالونية للموانيء القبرصية، والتوجه مباشرة للسواحل المصرية والسورية للحصول على بضائع الشرق. أنظر: N. Coureas, Op. cit., p. 40

[٥٩] المقريزي، المصدر السابق، ٤/٢٨٤-٢٨٥؛ ابن اياس، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٣-٢٤.

فالمقريزي متحدثا عن الاضرار التي لحقت بالأسكندرية من جراء تلك الحملة يقول: "ومنها اختلت أحوالها، واتضه أهلها، وقلت أموالهم، وزالت نعمهم"، أما ابن اياس فيقول: "فمن يومئذ اختلت أحوال ثغر الأسكندرية، وتلاشى أمرها، وقلت أموالها، واختل نظامها، ورحل عنها سكانها".

تجار المدن الغربية– بما فيهم القبارصة– يمارسون تجارتهم داخل أراضي الدولة المملوكية بكل أمان وحرية، بل إن Mas–Latrie– يذهب إلى القول بإن الأوضاع الخاصة بتجارة قبرص مع مصر وسوريا، والامتيازات الممنوحة لتجار تلك الجزيرة داخل أراضي السلطان، تعد هي الأهم على الإطلاق من بين بنود تلك المعاهدة[٦٠]. وفي هذا السياق، يمكن الإشارة كذلك إلى الطلب الذي تقدم به صراحة سفراء الملك القبرصي للسلطان المملوكي من عدم القيام بالحجز على بضائع التجار القبارصة "تحت أي ذريعة"، أو إلحاق أذى أو سوء بهؤلاء التجار في حالة تعرض السواحل السورية أو المصرية لأي أعمال قرصنة من قبل السفن الأوربية[٦١].

٤. سيطرة المماليك على قبرص وأثر ذلك على الروابط التجارية بين الطرفين

رغم معاهدة الصلح التي تم عقدها بين سلطان مصر وملك قبرص عقب حملة بطرس لوزجنان على الأسكندرية، إلا أن الغارات وأعمال القرصنة التي كانت تقوم بها السفن الغربية ضد السواحل المصرية والسورية لم تشهد توقفا مع بدايات القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. من ناحيتها، فإن السلطات المملوكية باتت على يقين أن قبرص وحاكمها هم المتهم الأول في هذا الأمر[٦٢]. والواقع أن غارات القبارصة في ذلك الوقت اتخذت شكلا عنيفا، وباتت تمثل خطورة كبيرة على المصالح التجارية لسلاطين مصر؛ فكثيرا ما كانت تقوم سفن تلك الجزيرة بقطع الطريق على المراكب التجارية القادمة إلى مينائي الأسكندرية ودمياط، ثم تقوم بنهب السلع والبضائع، وحملها إلى سواحل الجزيرة، وكان يتم هذا الأمر بعلم وتشجيع من الملك جانوس[٦٣].

مهما يكن من أمر فإن الحملات الانتقامية التي قامت بها البحرية المملوكية ضد قبرص خلال العامين ٨١٣هـ/١٤١٠م و٨١٤هـ/١٤١١م جعلت جانوس لديه رغبة أكيدة في تخفيف حدة التوتر مع سلطنة المماليك، وتفادي تعرض بلاده لاجراء انتقامي من قبل حكام مصر، لذلك فقد قام هذا الملك بعقد معاهدة سلام مع السلطان المملوكي المؤيد شيخ عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م، واعدا إياه بتوقف أي

---

60 Mas-Latrie, Op. cit., 2/**349**.
61 N. Jorga, Op. cit., p. **375**.
62 M. Ouerfelli, Op. cit., p. 330-331.
٦٣ سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، ص ٨٨.

عمل عدائي ضد ممتلكاته، كما أن هذا الملك تعهد باتخاذ الاجراءات اللازمة لمواجهة القراصنة الغربيين وايقاف خطرهم[٦٤]. وقد ذكر ابن شاهين الظاهري ما يبين الرغبة الصادقة التي كانت لدى الملك جانوس في هذا الأمر؛ ففي شهر رمضان ٨٢٦هـ/١٤٢٣م وصل رسل من قبل حاكم قبرص، "يخبر السلطان بتحرك الفرنج لمهاجمة السواحل المصرية"، وقد علق ابن شاهين على ذلك بقوله: "وكان الذي بعث بالخبر متملك قبرص كالمستنصح"[٦٥]. كما أن هذا المؤرخ يشير كذلك إلى أنه في شهر رمضان ٨٣١هـ/١٤٢٨م، أثناء قدوم الحمل (الضريبة) من قبرص، "بعث ملكها يحذر من مراكب الفرنج الكيتلان (القطالونيين)"[٦٦]. ويمكننا النظر إلى تلك الخطوات التي قام بها الملك القبرصي– والتي كانت مؤيدة من قبل التجار الإيطاليين والقبارصة– على أنها محاولة منه لإيجاد حالة من الاستقرار السياسي والتجاري مع سلطان مصر[٦٧].

على أية حال، فإن العلاقات بين الجانبين لم تستمر على وتيرة واحدة؛ فبعد عقد معاهدة السلام المذكورة آنفا، عاد التوتر بين الطرفين في العام التالي– أي ٨١٨هـ/١٤١٥م– وذلك بعد قيام الملك جانوس بشن عدة غارات ضد السواحل المصرية، بهدف الحصول على عدد من الأسرى للعمل في فلاحة الأرض وصناعة السكر، خاصة وأن بلاده في ذلك الوقت كانت تعاني من نقص حاد في الأيدي العاملة في هاتين الحرفتين[٦٨]. ومع وصوله لكرسي الحكم في مصر عام ٨٢٥هـ/١٤٢٢م، تبين للسلطان برسباي مدى الخطورة التي باتت تشكلها تلك الجزيرة على ممتلكاته، خاصة بعد أن

---

64 L. Machéras, Op. cit., p. **364**; Mas-Latrie, Op. cit., **2/528**; N. Coureas, "Losing the war but wining the peace: Cyprus and Mamluk Egypt in the fifteenth Century", in Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras, VII, Uitgeverij Peeters en Departement Oosterse Studies, Paris, 2013, p. 352; M. Ouerfelli, Op. cit., p. 332-333.

٦٥ ابن شاهين الظاهري، نيل الأمل في ذيل الدول، (تحقيق) عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية-بيروت، **٢٠٠٢م، ١٣٧/٤**.

٦٦ ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ٢٣٩/٤. أنظر كذلك: المقريزي، المصدر السابق، **١٧٨/٧**.

67 N. Coureas, Op. cit., p. 352.

68 J. Richard, Chypre sous les Lusignans, (documents chypriotes des archives du Vatican XIVe et XVe siècles), éd. Libraire orientaliste, Paris, 1962, p. 137; M. Ouerfelli, Op. cit., p. 333-334.

أصبحت مأوى وقاعدة رئيسة للسفن الغربية– وفي مقدمتها القطالونية– التي لم تتوقف عن مهاجمة السواحل السورية والمصرية[٦٩]. هذا الأمر أقنع برسباي بضرورة إخضاع تلك الجزيرة لسلطته؛ فقام بإرسال حملات ثلاث باتجاهها خلال الفترة من ٨٢٧هـ/١٤٢٤م إلى ٨٢٩هـ/١٤٢٦م، وقد كللت تلك المحاولات بنجاح كبير، وتمكنت من إلحاق الهزيمة بالقبارصة، بل وأسر الملك جانوس، وأصبحت قبرص من الآن فصاعدا خاضعة وتابعة لسلطنة المماليك[٧٠]. وقد تم الاتفاق بين الطرفين على أن يقوم ملك قبرص بحمل ضريبة سنوية إلى بلاط السلطان المملوكي، وتكون قيمتها ثمانية آلاف دوكات[٧١]، كما تعهد الملك جانوس بدفع مبلغ مائتي ألف دوكات حتى يفدي نفسه من الأسر[٧٢].

---

[69] L. Machéras, Op. cit., p. 365-366; Mas-Latrie, Op. cit., 2/459 ; N. Jorga, Op. cit., 1/302.

[٧٠] عن تفاصيل تلك الحملات ونتائجها، أنظر: المقريزي، المصدر السابق، ٧/١٠٠ وما بعدها ؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ١٤/١٠٥ وما بعدها؛ ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ٣/٣٣٠ وما بعدها.

[٧١] واقع الأمر أن قيمة الضريبة السنوية التي تعهد حكام قبرص بحملها إلى البلاط المملوكي لم تكن ثابتة، وإنما كانت تتغير من حين لآخر بحسب اختلاف الظروف؛ فتشير المصادر الغربية إلى أنه في الفترة الممتدة من عام ١٤٢٦م وحتى عام ١٤٣٠م كانت تتراوح قيمتها من خمسة آلاف إلى ثمانية آلاف دوكات، وهناك تقارير أخرى تعود إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي تؤكد أن قيمة الضريبة هي ثمانية آلاف دوكات، بينما نجد تلك القيمة تتضاعف على عهد الملك جيمس الثاني، الذي حكم الجزيرة منذ عام ١٤٦٤م. وربما يكون سبب تلك الزيادة يعود إلى المذبحة التي تعرض لها عدد من الجنود المماليك بقبرص، فأراد هذا الملك أن ينجو من غضب السلطان المملوكي وعقابه وذلك بمضاعفة الضريبة المرسلة إلى القاهرة. أنظر:
N. Coureas, "The Tribute paid to the Mamluk Sultanate, 1426-**1517**: The Perspective from Lusignan and Venetian Cyprus", in Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Ears, Vol. VII, Uitgeverij Peeters en department Oosterse Studies, Paris, 2013, p. 365.=

= هذا الأمر نجده كذلك في المصادر العربية؛ فعلى سبيل المثال يذكر ابن حجر أنه لما تم الصلح بين السلطان المملوكي والملك القبرصي عام ٨٢٩هـ، تعهد هذا الأخير بحمل عشرين ألف دينار سنويا لسلطان مصر، في حين أن المؤرخ ذاته يشير في أحداث شهر المحرم من عام ٨٣١هـ، إلى وصول "الحمل من قبرص، وهو خمسون ألف دينار". أنظر: ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ٣/٣٧٠، ٣٩٧.

[72] N. Coureas, The Tribute, p. 363; N. Coureas, "Losing the war, p. 354.

في معرض حديثه عن تلك الضريبة، يذكر المقريزي أن جانوس حاول بداية رفض دفع أي مبلغ من المال كي يفتدي به نفسه، فلما هدده السلطان وتوعده لم يجد بدا من التعهد بدفع مائتي ألف دينار

مهما يكن من أمر، فإن خضوع جزيرة قبرص لنفوذ وسيطرة المماليك كان له تأثير كبير على مستوى العلاقات التجارية ما بين الدولتين؛ فقد عرفت البضائع والسلع القبرصية طريقها للأسواق المصرية والسورية بمستوى متنام ومتزايد عن الفترات السابقة، كما اتسمت تلك البضائع بالوفرة والتنوع [٧٣]. والواقع أن القبارصة كانت لديهم رغبة أكيدة في المحافظة على علاقاتهم التجارية مع المماليك، رغم خضوعهم لهم من الناحية السياسية، وقد ظهر هذا الأمر جليا عقب إطلاق سراح جانوس ووصوله إلى بلاده؛ فقد قام هذا الملك مباشرة بإرسال الضريبة المقررة عليه، كما أنه أرسل أحد وكلائه، ويدعى Baudouin de Nores، إلى الأسكندرية ليدير له تجارته في تلك المدينة[٧٤]. كما أننا لدينا وثيقة تعود إلى عام ٨٣٩-٨٤٠هـ/١٤٣٦م تؤكد على وجود اتصالات بين الملك القبرصي وسلطان مصر؛ إذ إنه في هذا العام وصل إلى قبرص الأسباني Pero Tafur- الذي كان يريد التوجه إلى مصر لزيارة الأماكن المقدسة- والتقى بجانوس، فحمله هذا الأخير برسالة إلى برسباي، والتي كانت تشتمل على عدد من الطلبات والامتيازات التجارية، منها:

- عدم إرسال السلطان مبعوثيه إلى قبرص من أجل أخذ الضريبة السنوية، وأن ملك قبرص هو من سيقوم بإيصالها إلى القاهرة. وهذا الطلب إنما يعود في حقيقة الأمر إلى التكلفة والنفقة الكبيرة التي كانت تقع على كاهل جانوس، نتيجة إقامة هؤلاء المبعوثين في بلاده.
- أن تكون الأقمشة الصوفية القبرصية *camlet* هي الوسيلة التي يتم بها دفع قيمة تلك الضريبة السنوية.
- إلغاء جميع الضرائب المفروضة على الملح القبرصي الواصل إلى الساحلين المصري والسوري، خاصة وأن عوائد هذا المنتج كانت تمثل جزءا مهما من موارد الجزيرة ٧٥.

"يقوم منها بمائة ألف دينار، فإذا عاد إلى ملكه بعث بمائة ألف دينار"، كما أنه تعهد بحمل عشرين ألف دينار سنويا لخزينة السلطان. أنظر: المقريزي، المصدر السابق، ١٤٠/٧.

[73] N. Coureas, Latin Cyprus, p. 407; N. Coureas, Losing the war, p. 351.

[74] M. Ouerfelli, Op. cit., p. ٣٤٢.

[75] Jean Thenaud, Le voyage d'Outremer, Publié et annoté par : Ch. Schefer, Paris, **1884**, p. XVIII.

كما يشير أحد الباحثين الغربيين إلى أن تلك الضريبة السنوية التي فرضت على القبارصة– عقب هزيمتهم على يد القوات المملوكية في معركة خيروكيتيا Khirokitia– كانت تمثل أهمية وفائدة للطرفين: فبالنسبة لحكام الجزيرة، فإن الالتزام بتلك الضريبة، وتأديتها بصفة دورية كان يضمن لهم علاقات طيبة مع سلطنة المماليك على المستويين السياسي والتجاري، وهو أمر كان يمثل أهمية لهؤلاء الحكام، خاصة وأن حالة العداء كانت مستحكمة آنذاك بينهم وبين الجنويين، الذين كانوا يحتلون فاماجوستا، وهي المدينة الأكثر أهمية داخل الجزيرة من الناحية التجارية. أما بالنسبة للمماليك فإن تلك الضريبة كانت، من جهة، تمثل مصدر دخل لدولتهم، سواء أتم تأديتها كنقود أو تم إرسالها كبضائع وسلع. كما أنها، من جهة أخرى، كانت تعد بمثابة إشارة لخضوع قبرص لهيمنة وسيطرة سلاطين مصر ٧٦. على أية حال، فإنه يمكننا القول إن معاهدة الصلح التي تم عقدها ما بين الجانبين لم تقتصر نتائجها على مستوى العلاقات التجارية التي ربطت بين مصر وقبرص فحسب، وإنما كان لها تأثيراتها على الحركة التجارية داخل مياه البحر المتوسط بصفة عامة؛ فبعد فترة من الاضطرابات والعداء، ساد الأمن والهدوء في المنطقة، وأقبل التجار الغربيون إلى أراضي الدولة المملوكية للحصول على بضائع الشرق ٧٧.

من ناحية أخرى، فإنه يمكننا تلمس أثرا ودليلا آخر على قوة العلاقات التجارية التي ربطت آنذاك بين البلدين، وذلك من خلال العملات المصرية التي شهدت انتشارا ورواجا داخل المدن القبرصية، ويأتي في مقدمتها المؤيدية والأشرفية[٧٨]. ولعل هذا

---

[76] N. Coureas, The Tribute, p. **363**.

[77] M. Ouerfelli, Op. cit., p. **344**.

[٧٨] المؤيدية: هي الدراهم التي قام بضربها السلطان المؤيد شيخ المحمودي بدءا من شهر شوال عام **٨١٧هـ**، وقد بدأ الناس يتعاملون بها في القاهرة منذ أواخر شهر صفر عام **٨١٨هـ**. وقد عدد المقريزي فضائل كثيرة لتلك الدراهم، منها أنها كانت من الفضة الخالصة لا المغشوشة، وأن السلطان "اقتدى في عملها خالصة بالخلفاء الراشدين ... ولم يتبع سنة المفسدين، الذين نهى الله عن اتباعهم". أنظر: المقريزي، النقود الإسلامية، الرسالة الأولى من كتاب "ثلاث رسائل"، مطبعة الجوائب–قسطنطينية، **١٢٩٨هـ**، ص **١٥–١٦**.

الأشرفية: هي العملة التي تم ضربها في عهد السلطان الأشرف برسباي منذ عام **٨٢٩**هـ، والتي عرفت باسم "الدينار الأشرفي". وكان سبب قيام برسباي بهذا الأمر هو الخلل الذي حدث للنقد

الأمر هو الذي جعل السلطات القبرصية تتدخل، من أجل تقييم وتقدير قيمة هذه العملات المملوكية في مقابل العملة القبرصية[٧٩].

٥. العلاقات التجارية عقب خضوع الجزيرة لسيطرة الجنوية والبنادقة

مع نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي- وتحديدا عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م- تمكنت مدينة جنوة الإيطالية من فرض هيمنتها على مدينة فاماجوستا التجارية، كما أن البندقية- المنافس الأول لجنوة- تمكنت هي الأخرى من إخضاع الجزيرة كلها لنفوذها عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م. ومما لا شك فيه أن الازدهار التجاري الذي شهدته قبرص، بوصفها أحد أهم المحطات التجارية في منطقة البحر المتوسط، هو الذي دفع الجنويين والبنادقة للتسابق من أجل إخضاع هذه الجزيرة لسيطرتهم، والتحكم بالتالي في حركة التجارة بمنطقة البحر المتوسط[٨٠].

مهما يكن من أمر، فإنه بالرغم من خضوع ميناء قبرص الشهير فاماجوستا للسيادة الجنوية إلا أن العلاقات التجارية بين مصر وسوريا من ناحية، وقبرص من ناحية أخرى، لم تنقطع؛ فقد كان هذا الميناء يستقبل العديد من أنواع البضائع القادمة من الأسواق المصرية والشامية على متن السفن الجنوية، وبالمقابل كانت تلك السفن تحمل البضائع القبرصية المختلفة- وفي مقدمتها القمح- إلى المدن المملوكية[٨١]. بيد أنه ينبغي الإشارة إلى أن العلاقات التجارية كانت تشهد أحيانا توترا وفتورا بين

آنذاك، بالاضافة إلى سيطرة الدوكات البندقية "الافرنتي" داخل الأسواق المصرية والشامية، فأبطل السلطان التعامل بالافرنتي، وأمر "أن يعاد سبكه بدار الضرب، ثم يضرب على السكة الإسلامية". أنظر: المقريزي، السلوك، ١٢٩/٧.

79 B. Arbel, The last Decades, p**. 67**.

80 N. Jorga, Brève histoire des croisades, Paris, **1924**, p. **191** ; A. Atiya, Op. cit., p. **172** ; A. Blondy, Op. cit., p. 73.

81 N. Coureas, "Commercial Relations between Genoese Famagusta and the Mamluk Sultanate, 1374-1464", in Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras, Vol. VII, Uitgeverij Peeters en department Oosterse Studies, Paris, 2013, p. 329.

الجانبين، وذلك بسبب الغارات وأعمال القرصنة التي كانت تقوم بها السفن الغربية ضد السواحل المصرية والسورية، وفي هذه الحالة فإن الجالية الجنوية الموجودة بأراضي السلطان كانت عرضة للسجن، ومصادرة بضائعهم وأموالهم[٨٢].

جدير بالذكر أن مدينة جنوة– وفي محاولة منها لفرض هيمنتها وسيطرتها على كل تجارة الجزيرة– قامت بغلق كل الموانيء الأخرى لقبرص في وجه السفن التجارية الغربية المنافسة لها، وإرغامها على التوجه إلى ميناء فاماجوستا. ورغم محاولات حكام قبرص التخلص من هذا الخطر، الذي بات يهدد مصالحهم التجارية، سواء من خلال تهديد الجنويين باستخدام القوة العسكرية، أو من خلال الدخول معهم في مفاوضات سلمية، إلا أن تلك المحاولات لم تجد نفعا، ونجح الجنويون في احتكار تجارة قبرص من خلال السيطرة على فاماجوستا[٨٣]. وقد قام الجنويون بفرض ضريبة كبيرة على البضائع القادمة إلى ميناء تلك المدينة، وكانت تلك الضريبة تسمى بـ*The Commercium*، وقد خضعت السلع التجارية القادمة من المدن المصرية والسورية كذلك لهذه الضريبة[٨٤].

على أية حال، فإن تلك المحاولة التي قام بها الجنويون لم تأت بالنتيجة والثمرة المرجوة؛ فالتجار الغربيون، وفي مقدمتهم البنادقة والقطالونيين، اضطروا إلى هجرة كل الموانيء التجارية للجزيرة، والتوجه لممارسة التجارة مع مدن الساحلين المصري والسوري، خاصة الأسكندرية وبيروت[٨٥]. كما أن المنافسة التجارية الكبيرة التي بدأ يعاني منها التجار القبارصة منذ خضوع فاماجوستا لسلطة الجنويين، دفعت هؤلاء التجار إلى مغادرة تلك المدينة واللجوء إلى مصر، التي أصبحت من الآن فصاعدا القاعدة الرئيسة لصفقاتهم وعملياتهم التجارية[٨٦].

---

[82] Ibid.

[83] Mas-Latrie, Op. cit., 2/403.

[84] N. Coureas, Op. cit., p. 333.

[85] E. Piloti, Op. cit, p. **55-57** ; M. Galibert, Histoire de la République de Venise, Paris, **1850**, p. **163**.

[86] N. Coureas, Losing the war, p. ٣٦٠; N. Coureas, Latin Cyprus, p. **406**.

ولعل ما يؤكد هذا الأمر هو رواية أحد الرحالة الغربيين، ويدعى *Baron d'Anglure*، الذي كان موجودا بمدينة الأسكندرية مع نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي؛ فقد أشار هذا الرحالة إلى فندق التجار القبارصة، والنشاط التجاري الملحوظ لهم داخل هذه المدينة[٨٧].

كما أن البندقية– رغم سيطرتها الفعلية على قبرص منذ عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م– لم تكن لديها رغبة في فقدان حليفها التجاري الأول في الشرق، الدولة المملوكية، لذلك فإن الحكومة البندقية سارعت بإرسال أحد مبعوثيها– ويدعى *Pietro Diedo*– إلى القاهرة، من أجل إبلاغ السلطان بأن قبرص ما زالت "جزيرته ومملكته"، وأن البنادقة ما هم إلا مجرد "حامين ومدافعين عنها لصالح السلطان ورعيته"، كما أن تلك المدينة الإيطالية أبدت استعدادها لحمل الضريبة السنوية المقررة على الجزيرة إلى القاهرة[٨٨].

ولدينا بعض الإشارات التي تؤكد بشكل واضح استمرار التبادل التجاري بين سلطنة المماليك وجزيرة قبرص حتى بدايات القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي؛ فعلى سبيل المثال– وبحسب رواية الحاكم البندقي لمدينة فاماجوستا– فإنه خلال شهر ربيع الأول ٩٠٦هـ/أكتوبر ١٥٠٠م كان يصل من الساحل السوري إلى ميناء تلك المدينة أسبوعيا من أربع إلى ست سفن، محملة بشتى أنواع المؤن الغذائية. كما أنه في شهر ربيع الأول ٩٠٨هـ/سبتمبر ١٥٠٢م يذكر هذا الحاكم كذلك أن هناك سفنا سورية كانت تصل في كل يوم إلى ميناء المدينة[٨٩]. أما في عام ٩١٦هـ/١٥١٠م، فقد أشار البنادقة المقيمون بالجزيرة إلى أن "أهالي قبرص الفقراء" إنما يعتمدون في معيشتهم على التجارة مع البلاد السورية[٩٠].

---

87 Baron d'Anglure, Le saint voyage de Jérusalem par le Baron d'Anglure (1395), Paris, **1858**, p. **183**.

88 B. Arbel, Venetian Cyprus, p. **161**; B. Arbel, The last Decades, p. **67**.
بيد أنه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن البندقية كانت هي التي تتحمل فعليا قيمة وتكلفة تلك الضريبة، بل إن السلطات القبرصية هي التي كانت تتكفل بها من مصادرها وخزانتها الخاصة. أنظر:
B. Arbel, Venetian Cyprus, p. **162**.

89 B. Arbel, The last Decades, p. ٦٦.

90 Ibid.

٦. الجالية القبرصية في مصر وسوريا

وجدت بمصر وسوريا جالية قبرصية جنبا إلى جنب مع الجاليات الأوربية الأخرى، وقد تمركز القبارصة بصفة خاصة في مدينتي الأسكندرية وبيروت [٩١]. ويشير فيليب دي مزيير إلى أنه في الوقت الذي كان يتجهز الملك بطرس الأول لمهاجمة الأسكندرية، كانت توجد جالية أوربية كبيرة داخل تلك المدينة، من بينهم عدد ليس بالقليل من التجار القبارصة. ويطلب دي مزيير كذلك من هؤلاء التجار أن يكون لهم دور ملموس في إنجاح المشروع الصليبي، الذي سيقوم به بطرس[٩٢].

وبداخل الأسكندرية كان يوجد خان للقبارصة يسمى "خان موسى*Han de la Moze*"، الذي ورد ذكره لأول مرة عام ٧٧٠هـ/١٣٦٨م [٩٣]. وقد أكد هذا الأمر كذلك الرحالة *Le Baron d'Anglure*، الذي كان بمصر عام ٧٩٨هـ/١٣٩٥م؛ فهو يشير لوجود عدد من فنادق المدن التجارية الأوربية داخل مدينة الأسكندرية، ومنها فندق القبارصة[٩٤]. والواقع أن "خان موسى" هذا ارتبط وجوده وظهوره بمعاهدة الصلح التي تمت ما بين مصر وقبرص، عقب أحداث هجوم بطرس على الأسكندرية؛ فقد كان من شروط الحاكم القبرصي استمرار تواجد الجالية القبرصية بتلك المدينة، وتخصيص مكان لإقامتهم، فتم بناء على ذلك منحهم هذا الفندق المذكور[٩٥]. أما تواجد القبارصة ببيروت فقد أشار إليه المؤرخ صالح بن يحيي، ذاكرا أنه كان لهم بالمدينة "كنس" يسكنه جماعة من التجار، وكان لهم كذلك خانات وحمامات بالمدينة[٩٦].

---

[91] N. Coureas, Losing the war, p. **352**.

[92] N. Jorga, Philippe de Mézières, p. **288**.

[93] N. Coureas, Op. cit., p. ٣٦٠.

واقع الأمر، أن الفندق القبرصي بالأسكندرية كان موجودا حتى قبل حملة بطرس على تلك المدينة عام **٧٦٧هـ/١٣٦٥م**، فلما تم الصلح ما بين الطرفين تمت الإشارة إلى هذا الفندق في بنود المعاهدة التي وقعت بين الطرفين. أنظر: M. Ouerfelli, Op. cit., p. **341**.

[94] Baron d'Anglure, Op. cit., p. 183.

[95] N. Coureas, Latin Cyprus, p. **406**.

[٩٦] صالح بن يحيي، المصدر السابق، ص ٥٩.

ولعل تواجد الجالية القبرصية داخل الأراضي المملوكية يمكن البرهنة عليه كذلك من خلال القصة التي يرويها المؤرخ القبرصي Machéras، قبيل إقدام الملك بطرس على مهاجمة الأسكندرية؛ فقد قامت السفن القبرصية بخطف أحد رعايا السلطان المملوكي، وحمله إلى الجزيرة حيث سجن هناك. وقد تمكن هذا الأسير – بمساعدة أحد التجار الأتراك– من إرسال رسالة لحاكم دمشق، لتخليصه من الأسر. فقام حاكم تلك المدينة على الفور بإلقاء القبض على كل التجار القبارصة الموجودين بمدينته، كما أنه أمر هؤلاء التجار بأن يراسلوا ملكهم من أجل إطلاق سراح هذا الأسير. ويؤكد هذا المؤرخ أن تلك الحادثة كانت سببا في تشجيع الملك بطرس– بمساعدة حكام الغرب الأوربي– على تنفيذ مشروعه العسكري ضد الأسكندرية، "لنهب وتدمير أراضي سلطان القاهرة"[٩٧]. ويبدو أن الجالية القبرصية كانت تحتل مكانة كبيرة على الساحل السوري، وهو الأمر الذي مكنها من التدخل لحل النزاع والمشاحنات التي وقعت بين البنادقة والجنويين في مدينة بيروت عام ٧٨٣–٧٨٤هـ/١٣٨٢م[٩٨].

كما أن الوثائق البندقية تشير إلى تواجد قناصلة للقبارصة داخل الأراضي المصرية والسورية، خاصة بعد أن تمت المصالحة بين الجانبين، عقب حملة بطرس على الأسكندرية[٩٩]. فأثناء التفاوض حول بنود تلك الاتفاقية عام ١٣٦٨م[١٠٠]، اشترط الملك بطرس صراحة أن يكون له قناصلة داخل أراضي السلطان[١٠١]. وكان القبارصة المقيمون بالمدن المملوكية يخضعون في قضاياهم لسلطة هذا القنصل القبرصي– شريطة ألا تنطوي القضية على إراقة دماء– تماما كما

---

[97] L. Machéras, Op. cit., p. **87-89**.

[98] M. Ouerfelli, Op. cit., p. 341.

[99] Mas-Latrie, Des relations politiques et commerciales, p. **500**.

[١٠٠] حقيقة الأمر أن هذه المعاهدة لم يتم تنفيذ بنودها على أرض الواقع في هذا العام، وإنما استمرت المراسلات والمحاورات ما بين الطرفين عدة سنوات، وتم صياغتها في صورتها النهائية عام ٧٧١هـ/١٣٧٠م، عندما تقلد بطرس الثاني الحكم داخل الجزيرة. أنظر:
Mas-Latrie, Histoire de l'Ile de Chypre, 2/331

[101] Mas-Latrie, Histoire de l'Ile de Chypre, 2/294 ; Mas-Latrie, Des relations politiques et commerciales, p. 122.

كانت تخضع الجاليات الأوربية الأخرى لأحكام قناصلتهم داخل الأراضي المصرية والسورية[١٠٢]. بيد أنه لدينا بعض الإشارات، التي تعود إلى بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، والتي تجعلنا نعتقد أن القبارصة بسوريا أصبحوا يخضعون آنذاك لسلطة القنصل البندقي؛ ففي عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م، توجه التجار القبارصة المقيمون بدمشق بشكوى للسلطات المملوكية ضد القنصل البندقي، وذلك بسبب أن هذا الأخير كان قد ألزمهم بدفع ضريبة على الملح والسكر والعسل، وغيرها من البضائع التي قاموا بجلبها من قبرص إلى الأسواق السورية[١٠٣]. وربما يمكن تفسير هذا الأمر في حقيقة مفادها أن الجزيرة نفسها كانت تخضع في ذلك الوقت لنفوذ البنادقة، ومن ثم فقد أصبحت تلك المدينة الإيطالية هي الراعية لتجار وتجارة قبرص في مصر وسوريا.

في المقابل، فإنه بعد انهيار الوجود اللاتيني ببلاد الشام، غادر مصر وسوريا عدد من التجار المسيحيين الأرثوذكس وتوجهوا إلى قبرص، حيث أصبح لهم نشاط تجاري ملحوظ في تلك الجزيرة، كما أنهم أصبحوا وسطاء لا غنى عنهم لنقل البضائع الشرقية من السواحل الشامية والمصرية إلى قبرص، ومن هناك كانت تقوم السفن الغربية بحمل تلك البضائع إلى جميع الأسواق الأوربية[١٠٤]. وقد كانت تلك الجالية من الكثرة، بحيث إنها أصبحت تشكل الأغلبية داخل مدينة فاماجوستا، ولعل هذا الأمر كان من نتائجه الانتشار الواسع للغة العربية، التي احتلت آنذاك المرتبة الثانية– بعد اليونانية– داخل تلك الجزيرة[١٠٥]. كما أن هناك إشارات في المصادر البندقية إلى وصول عدد ليس بالقليل من التجار المسيحيين السوريين إلى قبرص، واستيطانهم بها مع بدايات القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ولعل

---

102 Mas-Latrie, Histoire de l'Ile de Chypre, 2/294 ; N. Coureas, Losing the war, p. ٣٦٠; N. Coureas, Latin Cyprus, p. 406.

103 B. Arbel, The last Decades, p. ٦٦.

104 N. Coureas, The Lusignan Kingdom, p. 369; N. Coureas, Latin Cyprus, p. 405; J. Pahlitzsch, "Mediators between East and West: Christians under Mamluk Rule", in Mamluk Studies Review, Vol. 9. No. 2, Middle East Documentations Center, the University of Chicago, 2005, p. 41.

105 J. Pahlitzsch, Op. cit., p. 41.

سبب هذه الأمر يعود إلى خضوع الجزيرة منذ عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م لسلطة البنادقة، الذين منحوا كثيرا من التسهيلات والامتيازات لهؤلاء الوافدين[١٠٦].

ولعل من أشهر هؤلاء المسيحيين الذين استوطنوا قبرص عائلة تسمى لاخان Lakhan النسطورية، التي لعبت دورا ملموسا في إنعاش حركة التجارة ما بين الموانيء السورية وميناء فاماجوستا[١٠٧]. وقد أشار المؤرخ القبرصي Machéras إلى الثراء الكبير الذي كان عليه أحد أفراد هذه الأسرة، ويدعى Frazes Lachas، مؤكدا أن هذا الأمر قد ظهر جليا عندما قام باستقبال الملك القبرصي بطرس في منزله، "فالأواني الفضية والذهبية والأحجار الكريمة كانت مبهرة للجميع". كما أن هذا المؤرخ يذكر أن هذا التاجر قد أرسل في أحد الأيام إلى الملك عشرة آلاف دوكات كهدية، ذاكرا له أنه في صفقة تجارية واحدة حقق ربحا يصل إلى ثلاثين ألف دوكات، وإنه "يرجو من الملك أن يقبل تلك الأموال التي أرسلها له"[١٠٨].

٧. البضائع التجارية المتبادلة بين الجانبين

أصبحت قبرص منذ منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي السوق الأكبر والأكثر أهمية لبضائع الشرق المتعددة والمتنوعة، وفي مقدمتها التوابل، التي كانت تصل إلى الجزيرة من الأسواق المصرية والسورية[١٠٩]. وهناك وثيقة تعود إلى عام ٧٦١هـ/١٣٦٠م تتحدث عن وصول كميات كبيرة من الفلفل إلى الجزيرة من مدينة الأسكندرية[١١٠]. والواقع أن حكام تلك الجزيرة أنفسهم كانت لديهم رغبة في التزود بتلك السلع المهمة؛ فعلى سبيل المثال قام الملك جانوس، عام ٨٣١هـ/١٤٢٨م بشراء الزعفران والفلفل، وغيرها من أنواع التوابل الأخرى من أحد التجار البنادقة القادمين إلى بلاده من مدينة الأسكندرية. وقد بلغت قيمة تلك البضائع ما يزيد عن

---

106 B. Arbel, Venetian Cyprus, p. **173**.

107 M. Ouerfelli, Le sucre: production, commercialization et usages dans la Méditerranée médievale, Brill, Leiden, **2008**, p. **356**.

108 L. Machéras, Op. cit., p. **52**-53.

109 N. Coureas, Controlled Contact, p. ٤٠٧; هايد، المرجع السابق، ٢/٢٩٥؛

110 E. Ashtor, Levant Trade, p. **80**-**81**.

أربعة عشر ألف دوكات[١١١]. ولعل كثرة التوابل الموجودة بمدينة فاماجوستا هي التي دفعت أحد الرحالة الغربيين، الذي زار هذه المدينة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي– ويدعى Ludolph de Sudheim– إلى القول بإن "تواجد التوابل في كل مكان داخل المدينة يشبه تواجد الخبز في بلادنا"[١١٢]. وفي مقابل التوابل، فإن السلع القبرصية الأكثر أهمية لسلاطين المماليك آنذاك تمثلت في الأسلحة والمعادن والأخشاب، وهي مواد استراتيجية لم تكن موجودة بوفرة داخل أراضي سلاطين المماليك، لذلك فقد اعتمدوا في الحصول عليها على تجار قبرص، وتجار الغرب الأوربي بصفة عامة، وذلك رغم التحذيرات البابوية المتكررة، التي كانت تهدد هؤلاء التجار بتعرضهم لأقصى العقوبات[١١٣].

من ناحية أخرى، لاقت المنسوجات والأقمشة الصوفية القبرصية الشهيرة رواجا وإقبالا كبيرا داخل الأسواق المصرية والسورية. ففي إحدى الوثائق التجارية التي تعود إلى عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، هناك إشارة لوصول كميات من الأقمشة الصوفية القبرصية ذات الألوان المختلفة– كالأخضر والأبيض والأصفر– من سواحل تلك الجزيرة باتجاه الأسكندرية ودمياط ودمشق وبيروت وأنطاكية[١١٤]. جدير بالذكر أنه عقب خضوع قبرص لسلطة المماليك عام ٨٢٩هـ/١٤٢٦م، التزم حاكم تلك الجزيرة بحمل ضريبة سنوية لبلاط السلطان المملوكي بالقاهرة، وقد بلغت قيمة تلك الضريبة ثمانية آلاف دوكات ذهبية. بيد أن الشيء الجدير بالملاحظة هو أن تلك الضريبة لم تكن تصل إلى خزانة الدولة المملوكية كنقود، وإنما كان القبارصة يقومون بنقل كميات من البضائع التي اشتهرت بها بلادهم، والتي تكون قيمتها مساوية للمبلغ المقرر[١١٥]. ويأتي في مقدمة تلك البضائع النسيج القبرصي الشهير المسمى *camlet*، المصنوع من الصوف والحرير، وهو الذي جلب شهرة كبيرة للجزيرة، حتى أن هايد يذكر أن

---

111 E. Ashtor, Op. cit., p. ٣٦٦.
112 Ludolph de Sudheim, Op. cit., p. **1051**.
113 N. Coureas, Latin Cyprus, p.**404- 405**.
114 N. Coureas, Op. cit., p. **405**.
115 B. Arbel, The last Decades, p. **67**; B. Arbel, Venetian Cyprus, p. 162; N. Coureas, Losing the war, p. 354; N. Coureas, Latin Cyprus, p. **407**.

قبرص آنذاك كانت البلد الذي استحق أن يوصف دون غيره بأنه "مركز صناعة الشملات"، وقد وصلت تلك الشملات إلى آسيا الصغرى، كما حملت منه كميات كبيرة إلى الأسكندرية والقاهرة والمدن السورية[١١٦]. وقد ذكر أحد البنادقة، الذي كان مقيما بمدينتي الأسكندرية ودمشق بين عامي١٤١٧م و١٤٢٢م، ويدعى*Niccolo Venier*، أن التجار البنادقة، الموجودين بمدينة نيقوسيا، قاموا بحمل تلك الأنسجة على متن سفنهم إلى الأراضي السورية[١١٧]. كما أن التجار الجنويين كانت لهم مساهمات كذلك في نقل تلك الأنسجة إلى الأسواق المملوكية؛ فتذكر المصادر أنه في شهر المحرم ٨٢٢هـ/فبراير ١٤١٩م قام أحد التجار الجنويين المقيمين بقبرص، ويدعى *Oberto Doria*، بإرسال ثلاث وثلاثين قطعة من هذه الأقمشة إلى أحد التجار المقيمين بمدينة دمشق للقيام ببيعها[١١٨].

والواقع أن المصادر العربية تمدنا بإشارات متعددة تؤكد ظهور تلك المنسوجات في كل سنة كانت تصل فيها تلك الضريبة إلى مصر، بل إن الصوف القبرصي قد ظهر مبكرا منذ وقوع ملك قبرص في أسر المماليك؛ فالمقريزي يشير إلى أن القوات المملوكية المنتصرة قد وصلت إلى القاهرة ومعها كثير من الغنائم، التي كانت عبارة عن "ثياب وقماش وأواني[١١٩]. كما أن ابن اياس يذكر أنه بعد نجاح برسباي في إخضاع قبرص لنفوذه، وقيامه بأسر حاكمها جانوس، فإن هذا الأخير قد "اشترى نفسه من السلطان بمائتي ألف دينار"، وأن يكون نائبا عنه في حكم قبرص،

---

[١١٦] هايد، المرجع السابق، ٢١٧/٤. الواقع أن هايد يشير إلى أن قبرص كانت تعد أشهر مركز لانتاج الخيوط الذهبية والفضية، ومن ثم فقد كان اسم "ذهب قبرص" مرادفا للذهب المغزول. وسر هذه الصناعة يكمن في أنها عبارة عن خيوط من الكتان محاطة بغلاف رقيق من أمعاء الخنازير أو الخراف، ومكسوة بطبقة من الذهب. وكانت تستعمل لتطريز أرضيات زخرفية أو كحواف على الثياب والبسط أو تنسج في القماش نفسه فينتج الديباج. أنظر: هايد، المرجع السابق، ١٨٧/٤.

[117] N. Coureas, The Tribute, p. 363; N. Coureas, Losing the war, p. 354-355.

[118] Ch. Verlinden, "Marchande chrétiens et juifs dans l'Etat mamelouk au début du XVe siècle d'après un notaire vénitien", in Bulletin de l'institut historique belge de Rome, 51, 1981, p. 40-41.

[١١٩] المقريزي، المصدر السابق، ١٤٠/٧.

مقابل أن يحمل إلى السلطان في كل سنة عشرين ألف دينار، "ومن الصوف ألفين ثوب، وغير ذلك من الجوخ وأنواع الهدايا الفاخرة"[١٢٠]. وابن شاهين الظاهري يقول إنه في شهر شوال ٨٣٤هـ/١٤٣١م، وصل الجنود من قبرص إلى القاهرة وهم يحملون الضريبة المتأخرة، والتي كانت عبارة عن "عدة من ثياب الصوف"[١٢١]. كما يشير السخاوي في أحداث شهر ذي الحجة ٨٤٧هـ/١٤٤٤م إلى وصول "حمل صاحب قبرس، وهو جملة أثواب صوف"، وقد وصل بداية إلى ساحل بيروت، ثم تم نقله على ظهور الدواب إلى القاهرة[١٢٢].

ومما يؤكد الرواج الكبير الذي لاقته تلك المنسوجات داخل الأسواق المصرية وإقبال الناس على اقتنائها، ذلك السعر المرتفع الذي كانت تباع به القطعة الواحدة، والذي كان يصل أحيانا لثلاثين دوكات أو أكثر. في المقابل، فإن سعر تلك المنسوجات في الأسواق القبرصية لم يكن يصل إلى تلك القيمة، وهو الأمر الذي يفسر لنا قيام الملك القبرصي يوحنا الثاني بإرسال مبعوثيه للسلطان المملوكي بالقاهرة، يعرض عليه إرسال الضريبة السنوية على هيئة منسوجات وأقمشة، وقد لاقى هذا العرض قبولا من سلطان مصر، ولا شك أن هذا الأمر قد حقق فائدة كبيرة للملك القبرصي[١٢٣]. بناء على هذا الاتفاق، فقد خصصت دور الطراز والنسيج بمدينة نيقوسيا الجزء الأكبر والأهم مما تصنعه من الأصواف والأقمشة الحريرية لإرساله إلى القاهرة[١٢٤]. جدير بالذكر أن سياسة الاحتكار والطرح التي كان يمارسها السلطان برسباي في أنواع البضائع المختلفة– خاصة التوابل والسكر – قد شملت كذلك تلك الأقمشة القبرصية؛ فعلى سبيل المثال يذكر المقريزي أنه في شهر المحرم ٨٣٢هـ/١٤٢٨م، لما قدم "الحمل من جزيرة قبرص"، تم نقل الأثواب الصوفية، التي بلغ عددها ثمانمائة ثوب، إلى دمشق، وتم طرحها على التجار بسعر تسعة عشر دينارا للثوب الواحد، "فأبيع أحسنها باثنى عشر دينارا، فخسر كل ثوب سبعة دنانير"[١٢٥].

---

[١٢٠] ابن اياس، المصدر السابق، ٢/١٠٨-١٠٩.
[١٢١] ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ٤/٢٩٩.
[١٢٢] السخاوي، المصدر السابق، ١/١٧٩.
[123] N. Coureas, The Tribute, p. 364.
[124] B. Arbel, The last Decades, p. 67.
[١٢٥] المقريزي، المصدر السابق، ١٨٦/٧. أنظر كذلك: ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ٢٤٦/٤.

وإذا كانت الأسواق المملوكية قد تزودت بكميات كبيرة من المنسوجات القبرصية الشهيرة *camlet*، فإننا– في المقابل– لا نستطيع تجاهل وصول كميات من القطن السوري، ذي الجودة العالية، إلى تلك الجزيرة، وقد كانت هذه السلعة تنقل بواسطة التجار البنادقة، كما أن عددا من التجار القبارصة شاركوا كذلك في نقل هذا القطن إلى بلادهم، وبيعه لحسابهم الخاص[١٢٦]. فالوثائق التجارية الموجودة بمدينة فاماجوستا، التي يعود تاريخها إلى الفترة من ٦٩٨هـ/١٢٩٩م وحتى٧٠٠هـ/١٣٠١م، تشتمل على خمسة عقود بيع لحمولة من الأقطان القادمة من سوريا، والتي كانت تصل قيمتها لما يعادل ثلاثة آلاف دينار تقريبا، وقد تم شراء تلك الكمية بعد ذلك من قبل التجار البنادقة [١٢٧]. كما تذكر لنا الوثائق اسم أحد التجار القبارصة المنتمي إلى مدينة نيقوسيا– ويدعى برنارد– والذي كان مقيما بمدينة طرابلس السورية عام ٨٣٢هـ/١٤٢٩م، وقد قام هذا التاجر بحمل كمية كبيرة من الأقطان السورية إلى مدينة فاماجوستا[١٢٨]. وتؤكد تلك الوثائق بكل صراحة على أن القطن السوري كان يعد من أفضل وأجود الأقطان الموجودة بالأسواق القبرصية والأوربية بصفة عامة، لذلك فإنه كان يباع بأعلى الأسعار، خاصة تلك الأقطان القادمة من مدينة حماة[١٢٩].

والواقع أنه بالرغم من إشارة مارينو سانودو– أحد المنظرين للحروب الصليبية مع بداية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي– إلى أن زراعة القطن كانت تنتشر على نطاق واسع في

---

126 E. Ashtor, "The Venetian Cotton Trade in Syria in the Later Middle Ages", in Studies on the Levantine Trade in the Middle Ages, Variorum Reprints, London **1978**, p. **692**, **694**; E. Ashtor, Levant Trade, p. 39; N. Coureas, Latin Cyprus, p. **407**.

جدير بالذكر أن معظم البلدان الإسلامية قد عرفت زراعة القطن منذ القرن العاشر الميلادي، وأنه من خلال هذه البلدان الإسلامية انتقلت زراعة هذا المحصول إلى العديد من البلدان الأوربية، ومنها قبرص. أنظر:

Jong-Kuk Nam, Le commerce du coton en Méditerranée à la fin du Moyen Age, éd. Brill, Leiden, **2007**, p. **98**, **173**.

127 E. Ashtor, Levant Trade, p. 40.

128 N. Coureas, Commercial Relations, p. 332-333.

129 Jong-Kuk Nam, Op. cit., p. 105.

جزيرة قبرص، إلا أنه يمكن التأكيد على أن هذا الأمر فيه شيء من المبالغة؛ ففي الحقيقة كان رأي سانودو ينطلق من دوافع سياسية ودينية؛ فهو أراد أن يضخم من خصوبة وإنتاجية الأراضي الزراعية في الدول المسيحية، من أجل البرهنة على أن العالم الغربي يستطيع التزود بما يحتاجه من أقطان، دون الحاجة إلى ارتياد التجار الغربيين للسواحل المملوكية. ومن ثم فإنه يمكننا التأكيد على أن القطن السوري كان هو المهيمن داخل الأسواق القبرصية طوال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين[١٣٠]. هذا بالاضافة إلى أن الكتان المصري الشهير كان قد لاقى قبولا كبيرا من قبل القبارصة؛ فالكتان كان ينمو بوفرة على طول نهر النيل، بصفة خاصة في ضواحي القاهرة ومدن الدلتا، ورغم أن الجزء الأكبر من هذا المحصول كان يستهلك محليا، حيث كانت تصنع منه الأقمشة والملابس الفخمة، إلا أن جزءا منه كان يصدر إلى عدة بلدان خارجية، كقبرص وشمال أفريقيا وأسبانيا وإيطاليا[١٣١].

من ناحية أخرى، فإننا نستطيع أن نذكر سلعة استراتيجية أخرى عرفت طريقها من تلك الجزيرة إلى الأسواق المصرية والسورية، وهي القمح. والواقع أن السلطات المملوكية كانت تلجأ أحيانا لاستيراد القمح القبرصي في الأوقات التي يضعف أو يتأخر فيها فيضان النيل، بحيث تكون هناك صعوبة في زراعة هذا المحصول لقلة المياه، وكذلك في حالة وقوع الجفاف في البلاد السورية، كما أن ارتفاع أسعار القمح داخل الأسواق المصرية كان دافعا لاستقدامه من جزيرة قبرص وغيرها من البلدان الأخرى[١٣٢]. وقد أشار التجار البنادقة في عقودهم التجارية إلى هذا الأمر بكل وضوح؛ ففي عام ٨٣١هـ/١٤٢٨م وصل إلى الأسكندرية عدة سفن قبرصية تحمل كميات كبيرة من القمح، والسبب في ذلك يعود إلى ارتفاع أسعار تلك السلعة الغذائية المهمة في الأسواق المصرية[١٣٣]. كما أن المصادر العربية تمدنا بمعلومات وفيرة عن هذا الأمر؛ فيشير ابن قاضي شهبة إلى أنه في عام ٨٠٧هـ/١٤٠٥م، في الوقت الذي كانت تعاني

---

130 Jong-Kuk Nam, Op. cit., p. 173.

١٣١ هايد، المرجع السابق، ١٣٦/٤.

132 E. Ashtor, "Quelques problèmes que souléve l'histoire des prix dans l'Orient mediéval", in Studies in memory of Gaston Wiet, edited by: Myriam Rosen-Ayalon, Institute of Asian and African Studies, **1977**, p. **215**.

133 Ibid.

فيه البلاد المصرية من نقص حاد في القمح، وصلت من جزيرة قبرص ثلاث مراكب تجارية "موسوقة قمح"[١٣٤]. كما يذكر ابن اياس أنه في عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م، لما توقفت مياه النيل عن الزيادة، "ومضت مسري ولم يف، ودخل توت ولم يف"، حدثت شدة عظيمة في مصر، وعانى الناس كثيرا من نقص الحبوب والخبز، فلجأ السلطان إلى إرسال سفنه بمبلغ كبير إلى قبرص، لشراء كميات من القمح، وحملها إلى القاهرة[١٣٥]. أما بالنسبة للمدن السورية، فقد وقع بها مجاعة كبيرة عام ٨٦١هـ/١٤٥٧م، وهو الأمر الذي دفع حاكم قبرص للموافقة على إرسال كميات كبيرة من القمح إلى بيروت[١٣٦]. وفي شهر ذي القعدة ٩٠٥هـ/يونيو ١٥٠٠م رصد القبطان البندقي بقبرص Sindico إبحار عدد من السفن المحملة بالقمح من المواني القبرصية متوجهة إلى السواحل المملوكية[١٣٧]. ومع نهاية العصر الملوكي، ونتيجة للتدهور الذي لحق بالنشاط الزراعي في مصر، أصبح القمح القبرصي يمثل أهمية كبيرة في تزويد المماليك بما يحتاجه السكان من تلك السلعة الاستراتيجية [١٣٨]. وعلى ذلك، فإنه يمكننا القول إن قبرص كانت كانت هي المصدر الأول الذي تزودت منه السلطات المملوكية بما تحتاجه من قمح في وقت الأزمات، خاصة بعد خضوع الجزيرة للسيادة المملوكية عام ٨٢٩هـ/١٤٢٦م، وهناك إشارات إلى أن حكام قبرص قد التزموا بعهود "لحمل القمح إلى مصر بصفة دائمة"[١٣٩].

مهما يكن من أمر، فإنه في حالة وفاء النيل بمصر، وبلوغ الفيضان المستوى المتوقع منه، فإن الكميات المزروعة من القمح كانت كافية لسد حاجات السكان، وهو الأمر الذي كان يؤدي إلى ثبات أسعاره في الأسواق، بل إن هناك كميات لا بأس بها من هذا المحصول كانت تصدر إلى الخارج، وكانت جزيرة قبرص واحدة من البلاد التي استقبلت القمح المصري. فخلال العقد

---

[١٣٤] ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ٤٠٧/٤.

[١٣٥] ابن اياس، المصدر السابق، ٢٨١/٢، ٢٨٣. انظر كذلك: ابن شاهين الظاهري، المصدر السابق، ٣١٧/٥.

[136] E. Ashtor, Op. cit., p. **217**.

[137] B. Arbel, Venetian Cyprus, p. **172**.

[138] E. Ashtor, A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages, London, 1976, p. 318.

[139] N. Coureas, Latin Cyprus, p. 407.

الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، قام أحد التجار البنادقة المقيمين بمصر – ويدعى *Marco Venerio*– بحمل كميات من القمح على متن سفينته، وتوجه به إلى قبرص، حيث قام هناك ببيعه لحاكم الجزيرة. وقد تكرر هذا الأمر في عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م[١٤٠]. كما أن أحد التجار الأقباط المقيمين بمدينة الأسكندرية– ويدعى *Ebnohoheis*– قام في شهر شوال ٨٢٤هـ/أكتوبر ١٤٢١م بتزويد ملك قبرص جانوس بكميات من الحبوب المصرية[١٤١]. وفي وثيقة بندقية تعود إلى عام ٨٨٩هـ/١٤٨٤م هناك إشارة لحمل القمح من مدينة دمياط باتجاه قبرص[١٤٢]. وكما حمل القمح من مصر إلى قبرص فإن القمح السوري عرف طريقه كذلك إلى تلك الجزيرة، كما حدث في عام ٨٤٥هـ/١٤٤١م[١٤٣]. وخلال السنوات الأولى من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي شهدت قبرص نقصا حادا في القمح، وقد تكفلت السلطات المملوكية بتزويدها بما تحتاجه من تلك السلعة؛ ففي شهر ربيع الأول ٩٠٦هـ/أكتوبر ١٥٠٠م، كان يصل إلى ميناء فاماجوستا أسبوعيا من أربع لست سفن ممتلئة بالقمح[١٤٤]. وقد أشار أشتور إلى أن سوريا كانت هي المصدر الرئيس لامداد الجزيرة بما تحتاجه من تلك السلعة الاستراتيجية في حالة وقوع الجفاف، أو خراب المزارع بسبب هجوم الجراد[١٤٥].

كما يعد السكر واحدا من السلع التي تظهر في قائمة البضائع المتبادلة بين الجانبين. وكان السكر المصري قد بلغ درجة كبيرة من الجودة والشهرة في العصر المملوكي، خاصة خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين؛ بحيث إنه أصبح سلعة تصدر إلى بلدان الشرق والغرب على السواء؛ فهناك وثائق تشير إلى وصول كميات كبيرة من هذا المنتج إلى بلدان الغرب الأوربي، كإيطاليا وجنوب فرنسا وإقليم كاتلونيا

---

140 E. Ashtor, Quelques problems, p. **217** ; E. Ashtor, A Social and Economic History, p. 319.
141 Ch. Verlinden, Op. cit., p. **61**, **67**.
142 E. Ashtor, Quelques problems, p. **217**.
143 E. Ashtor, Op. cit., p. ٢١٨.
144 B. Arbel, Venetian Cyprus, p. **172**.
145 E. Ashtor, Op. cit, p. ٢١٨.

الأسباني وانجلترا وألمانيا[١٤٦]. كما يشير عدد من الباحثين إلى أن السكر المصري ظل– حتى نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي– ينظر إليه في الغرب الأوربي كصنف من أنواع التوابل الشهيرة، كالفلفل والقرفة والزنجبيل[١٤٧]. أما فيما يخص قبرص، فيذهب أشتور إلى القول بإنه يمكننا الجزم بأن الجزء الأكبر من السكر الذي اشتهرت به هذه الجزيرة خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي– ومنها كان يصدر إلى شتى أنحاء أوروبا– إنما كان يأتي إليها من الأسواق المصرية والسورية[١٤٨].

بيد أنه نتيجة للتدهور الذي لحق بصناعة السكر في مصر مع نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي [١٤٩]، فإن الأمور سرعان ما تبدلت، وبدأت السلطات المملوكية

---

146 E. Ashtor, Levant Trade, p. 97-98, 206 ; S. Tsugitaka, "Slave Traders and Karimi Merchants", in Mamluk Studies Review, X (1), Middle East Documentation Center, the university of Chicago, 2006, p. 150.

147 M. Ouerfelli, "La consommation d'un produit de luxe en France au moyen âge : l'exemple du sucre", in L'economie du luxe en France et en Italie, comité franco-italien d'histoire economique, Lille, 2007, p. 3 ; M. Ferrer, "Catalan Commerce in the late Middle Ages", in Catalan Historical Review, N. 5, Institut d'Estudis catlans, Barcelona, 2012, p. 40.

148 E. Ashtor, Op. cit., p. 40, 80-81.

١٤٩ واقع الأمر، أنه يمكننا إرجاع سبب التدهور الذي لحق بصناعة السكر في مصر في تلك الفترة– في المقام الأول– إلى ما شهدته مصر آنذاك من فساد وانهيار سياسي؛ فالمؤرخون المصريون المعاصرون يذكرون لنا صراحة أن تعسف وظلم السلطة الحاكمة، والصراعات التي كانت تدور بين الأمراء، تعد من أهم أسباب الخراب الذي حل بالبلاد في جميع المجالات. أنظر: (المقريزي، المصدر السابق، ١٩١/٤؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ٢٢١/١٣؛ ابن اياس، المصدر السابق، ج ١، ق ٢، ص ٢٥١). كما أن الوباء والقحط الذي ضرب البلاد المصرية آنذاك كان له دور كذلك في هذا الانهيار؛ = =فمع منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، انتشر الطاعون انتشارا كبيرا في معظم أرجاء مصر، وهو الأمر الذي أودى بحياة عدد كبير من السكان في ذلك الوقت، ولا شك أن هذا الحدث كان له آثاره الكارثية على جميع أوجه النشاطات الاقتصادية في مصر، بما فيها زراعة قصب السكر. أنظر: (المقريزي، المصدر السابق، ٨٠/٤، ٨٨–٨٩؛ ابن اياس، المصدر السابق، ج ١، ق ١، ص ٥٣٠). إلى جانب كل هذا، فإن هناك عاملا آخر خارجيا ساهم في تدهور تلك الصناعة؛ فالمصادر والوثائق الغربية تشير إلى أنه مع نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، أصبح هناك فصل تام ما بين تجارة السكر من ناحية وتجارة التوابل من ناحية أخرى، وبدأ التجار الغربيون يعرضون عن شراء السكر المصري، خاصة بعد الممارسات الاحتكارية التي بدأت تمارسها السلطات المملوكية، والضرائب الباهظة التي فرضت على هؤلاء التجار. أنظر:
M. Ouerfelli, Op. cit., p. 3.

نفسها تقوم باستيراد كميات كبيرة من هذا المنتج من قبرص، خاصة وأن تلك الجزيرة كانت قد شهدت آنذاك نهضة كبير في تلك الصناعة، بسبب التقنيات الحديثة المستخدمة في الانتاج[١٥٠]. جدير بالذكر، أنه منذ بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي– ونتيجة للجهود التي قام بها الملك جاي لوزجنان، من أجل جذب السكان السوريين للقدوم إلى جزيرته– وصل إلى قبرص مجموعة من السكان القادمين من أنطاكية وطرابلس وعكا، والجزء الأكبر من هؤلاء السوريين كان يعمل بالفلاحة والصناعة. وعلى ذلك، فيمكننا القول إن هذه الهجرة قد لعبت دورا مهما في ازدهار هاتين الحرفتين داخل الجزيرة، ويعد قصب السكر واحدا من المحاصيل التي انتشرت زراعتها في تلك الأراضي بفضل هؤلاء السوريين[١٥١]. من ناحية أخرى، فإن أعمال القرصنة التي كانت تمارسها من حين لآخر السفن القبرصية ضد السواحل المصرية والسورية، والتي ألحقت كثيرا من الأضرار بتلك المناطق، قد أدت إلى نتيجة أخرى مهمة؛ إذ تمكنت تلك السفن من أسر عدد ليس بالقليل من السكان المسلمين، الذين تم نقلهم إلى الجزيرة، حيث عملوا هناك في فلاحة الأرض وزراعة قصب السكر، خاصة في مدينتي ليماسول وبافوس. وقد كان لهؤلاء الوافدين فضل كبير في نشأة وازدهار صناعة السكر بقبرص، بما كانوا يمتلكونه من خبرة ومهارة في تلك الصناعة[١٥٢].

على أية حال، فإن المصادر التاريخية المعاصرة تمدنا بمعلومات وفيرة عن وصول السكر القبرصي إلى الأسواق المملوكية؛ ففي احدى الوثائق البندقية التي تعود إلى عام ٨٣١– ٨٣٢هـ/١٤٢٨م، هناك إشارة إلى قيام أحد التجار البنادقة بجلب حمولة من السكر القبرصي إلى مصر، وقد بلغت قيمته ثمانية آلاف وأربعمائة دوكات[١٥٣]. وهناك إشارات كذلك إلى نقل كميات من السكر القبرصي إلى الأسواق الدمشقية؛ فالبندقي ماركو سانودو يشير في مدوناته إلى قيام التجار

---

150 N. Coureas, Losing the war, p. **351**; A. Levanoni, A Turning Point in Mamluk History, Brill, Leiden, **1995**, p. **141**.

151 M. Ouerfelli, Le sucre, p. **105**.

152 E. Piloti, Traité d'Emmanuel Piloti sur le passage en Terre Sainte, publié par Pierre-Herman Dopp, Paris, **1958**, p. **174-175** ; Mas-Latrie, Histoire de l'Ile de Chypre, 2/**459** ; B. Arbel, Venetian Cyprus, p. **159** ; J. Richard, Chypre sous les Lusignans, p. **137**.

153 N. Coureas, Losing the war, p. 357.

البنادقة– في عام ٩٠٩هـ/مارس ١٥٠٤م– بحمل كميات كبيرة من السكر والعسل وعدد من السلع الأخرى من قبرص إلى سوريا. كما أن التجار الجنويين شاركوا كذلك في تلك التجارة المربحة، وهو ما أشار إليه كذلك سانودو في أحداث عام٩١٤–٩١٥هـ/١٥٠٩م[١٥٤]. ويذكر أشتور أن الطبقات الغنية المرفهة داخل المجتمع المملوكي كانت تستخدم السكر المكرر، أما الفقراء فكانوا يستخدمون "لبس السكر"، الذي كان غالبا ما يصل إلى سوريا ومصر من جزيرة قبرص[١٥٥].

لقد أصبح السكر القادم من قبرص يمتلك ميزة مهمة عن مثيله المصنع في مصر وسوريا، وهو السعر المنخفض، وهو الأمر الذي أدى إلى رواج السكر القبرصي، وزيادة الطلب عليه في الأسواق المملوكية [١٥٦]. ولعل هذا الأمر هو الذي جعل حكومة البندقية– خلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي– تصدر الأوامر لسفنها المتجهة إلى الساحل السوري بوجوب المرور أولا بجزيرة قبرص، لحمل كميات من السكر، قبل أن تواصل رحلتها باتجاه مدينة بيروت، نظرا للأرباح الكبيرة التي كانت تحققها تلك السلعة في الأسواق السورية[١٥٧]. بل إن هايد يذكر أنه بسبب جودته وأسعاره المنخفضة، فإن البنادقة أنفسهم كانوا يفضلون السكر القبرصي على السكر القادم من مصر وسوريا[١٥٨].

ويعد الملح واحدا من أهم المنتجات المحلية للجزيرة، وكان من ضمن المنتجات القبرصية التي عرفت طريقها للأسواق المصرية والسورية، وقد ذكر هذا الأمر في مدونات بدرو تافور عام ٨٣٩–٨٤٠هـ/١٤٣٦م، وماركو سانودو عام ٩٠٩–٩١٠هـ/١٥٠٤م[١٥٩]. وبحسب رواية سانودو، فإن هذا الملح ظل يصدر إلى مصر حتى بدايات القرن العاشر

---

154 N. Coureas, Op. cit., p. ٣٥٨; M. Ouerfelli, Les relations, p. 342-343.

155 E. Ashtor, Quelques problems, p. ٢٢٧.

156 N. Coureas, Latin Cyprus, p. 407.

157 N. Coureas, Losing the war, p. **٣٥٨**; N. Coureas, Latin Cyprus, p. **407**.

١٥٨ هايد، المرجع السابق، ٢٠٠/٤.

159 N. Coureas, Losing the war, p. **٣٥٨**; B. Arbel, Venetian Cyprus, p. **172**.

يشير هايد إلى أن الملح كان يستخلص من ضفاف بحيرتين واقعتين بالقرب من ليماسول ولارناكا؛ فكان يدخل فيهما ماء البحر ثم يترسب الملح بعد تبخر المياه في حرارة الصيف. ونظرا لأهمية هذه السلعة والأرباح الكثيرة التي كانت تحققها، فإن الملك القبرصي قام باحتكار انتاج وبيع الملح. أنظر: هايد، المرجع السابق، ٢٣٦/٢.

الهجري/السادس عشر الميلادي[١٦٠]. هذا بالاضافة إلى الصمغ، الذي كان يصل إلى قبرص من جنوة، ثم يعاد تصديره إلى مدينة الأسكندرية [١٦١]. وفي المقابل، قام التجار البنادقة بحمل الصابون من الأسكندرية إلى قبرص، وقد لاقت هذه السلعة اهتماما كبيرا من قبل ملك قبرص جانوس. والواقع أن تلك الصناعة كانت قد شهدت ازدهارا كبيرا في مصر وسوريا في ذلك الوقت؛ حيث كان يوجد العديد من المصانع التي تقوم بإنتاجه، ونظرا لجودته فقد حملت منه كميات كبيرة إلى قبرص، وغيرها من البلدان الأوربية الأخرى[١٦٢]. وهناك إشارات كذلك إلى وصول النيلة (صبغ أزرق) من مصر إلى قبرص؛ ففي عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م، قام كاتب العدل البندقي Niccolo Venier– المقيم آنذاك بمصر– بكتابة صك، ينص فيه على أن يهوديا يسمى إيليا– المقيم بنيقوسيا، والذي عاش لفترة بدمشق– قد قام ببيع كمية من النيلة بتلك المدينة القبرصية لحساب أحد الأشخاص من ذوي الأصول المغربية– يدعى Daut–، والذي كان يعمل آنذاك مترجما بدمشق [١٦٣].

أما فيما يخص الجمارك وقيمة الضرائب التي كانت تفرض على البضائع القبرصية الواصلة إلى الموانيء المصرية والسورية، فيبدو أنها كانت تصل إلى ١٠% من قيمة تلك البضائع [١٦٤]. كما أن لدينا بعض الإشارات التي تؤكد سعي حكام قبرص لتخفيض تلك النسبة؛ فأثناء التحاور حول بنود الصلح بعد حادثة الأسكندرية، طلب الملك القبرصي بطرس الأول من السلطات المملوكية تخفيض قيمة الضرائب الجمركية إلى نصف القيمة التي كانت تدفع في السنوات السابقة [١٦٥].

---

160 N. Coureas, Latin Cyprus, p. **408**.
161 N. Coureas, Losing the war, p. ٣٥٨.
162 E. Ashtor, A Social and Economic History, p. **306**; N. Coureas, Latin Cyprus, p. **408**.
163 Ch. Verlinden, Marchande chrétiens et juifs, p. 42.
164 Mas-Latrie, Histoire de l'Ile de Chypre, 2/349.
165 Mas-Latrie, Op. cit., 2/320 ; N. Jorga, Philippe de Mézières, p. 375.

خاتمة البحث

من خلال هذه الدراسة التي تعرضت للعلاقات التجارية التي ربطت بين سلطنة المماليك وجزيرة قبرص، وأهم الأطوار والتغيرات التي طرأت على تلك الصلات في ظل علاقات متوترة بين الشرق والغرب بعد زوال الوجود اللاتيني من بلاد الشام، نستطيع أن نلخص أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث فيما يلي:

- بعد جلاء الصليبيين من الساحل السوري، باتت قبرص تمثل المركز الرئيس للحركة الصليبية؛ فقد قام حكام قبرص بفتح أبواب جزيرتهم أمام هؤلاء الفارين، وبفضل موقعها الاستراتيجي المطل على السواحل السورية والمصرية أخذت السفن القبرصية على عاتقها مهمة مهاجمة السواحل المصرية والسورية، وممارسة أعمال القرصنة ضد السفن الإسلامية، والواقع أن المدن المملوكية الساحلية قد عانت كثيرا من تلك الهجمات، والتي كانت تؤدي إلى تدمير وحرق ونهب تلك المدن، فضلا عن أسر كثير من المسلمين ونقلهم إلى قبرص.
- رغم أن قبرص– مع بدايات الحروب الصليبية– لم يكن لها حضور تجاري كبير في منطقة البحر المتوسط، واقتصر دورها على كونها محطة وسطى ذات دور وأهمية ثانوية، إلا أن الأمور ما لبثت أن شهدت تحولا كبيرا عقب سقوط عكا، وجلاء الصليبيين من بلاد الشام؛ فهذا الوضع الجديد منح تلك الجزيرة الصغيرة أهمية كبيرة من الناحية التجارية؛ فقد أصبحت تمثل نقطة ارتكاز، ومحور رئيسي للتجارة في منطقة البحر المتوسط؛ وكان لزاما على معظم السفن التجارية الغربية المتوجهة للشرق الإسلامي أن تحط بداية رحالها بسواحلها، كما أن قبرص أصبحت آنذاك مخزنا رئيسا لبضائع الشرق، وفي مقدمتها التوابل، ولعبت دورا مهما في تزويد الأسواق الأوربية بما نحناجه من تلك البضائع الثمينة.
- العلاقات السياسية العدائية والمضطربة بين سلاطين المماليك وحكام قبرص عقب سقوط عكا لم تستمر كثيرا؛ ففي حقبة زمنية كانت المصالح الاقتصادية تحتل فيها أهمية كبرى–

وربما تقدمت على فكرة "الحرب المقدسة"– لم يكن مستغربا أن نجد تقاربا من قبل ملوك قبرص مع حكام مصر، وتوقفهم عن أعمال القرصنة ضد سواحلهم، من أجل الدخول في صلات تجارية وثيقة تحقق كثيرا من الازدهار لجزيرتهم، وذلك بالرغم من الأوامر البابوية الصارمة التي كانت تجرم هذا الأمر. بل لم يعد هناك شك– من خلال شهادات المؤرخين المعاصرين– في أن جزءا كبيرا من هذا الثراء الذي أصبحت عليه قبرص خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين إنما يعود إلى العلاقات التجارية المميزة التي ربطت بينها وبين سلطنة المماليك، التي كانت تعد بمثابة مخزن لتجارة الشرق. والواقع أن الموقع الجغرافي المميز لقبرص، وقربها من السواحل السورية والمصرية لعب آنذاك دورا مهما في تقوية وتعزيز تلك العلاقات التجارية.

- بالرغم من أن الحملة الحملة العسكرية التي قام بها الملك القبرصي بطرس لوزجنان عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م ضد الأسكندرية قد ألحقت كثيرا من الخسائر والأضرار بتلك المدينة، فضلا عن كونها سببا في تهديد وجود التجار الغربيين بمصر وإلحاق خسائر كبيرة في بضائعهم وأموالهم، إلا أن الصلح الذي تم بين الطرفين عام ٧٧١هـ/١٣٧٠م أعاد الأوضاع إلى سابق عهدها، وعاد تجار المدن الغربية– بما فيهم القبارصة– يمارسون تجارتهم داخل أراضي الدولة المملوكية بكل أمان وحرية، بل إن بعض المؤرخين يذهبون للقول بإن الأوضاع الخاصة بتجارة قبرص مع مصر وسوريا، والامتيازات الممنوحة لتجار تلك الجزيرة، تعد هي الأهم على الإطلاق من بين بنود تلك المعاهدة.
- فكرة "المحافظة على العلاقات التجارية مع سلاطين مصر، والابتعاد عن أي خطر يهدد تواجدهم داخل مصر وسوريا" كانت حاضرة وبقوة لدى التجار القبارصة عند سماعهم بالمشروع الصليبي للملك بطرس؛ فالمصادر التاريخية المعاصرة تؤكد على أن تلك الحملة العسكرية لم تجد لها تأييدا من قبل تجار الجزيرة، الذين كانوا يخشون من التأثير السلبي لهذه الحملة على تجارتهم داخل أراضي السلطان المملوكي. أما في مرحلة ما بعد الهجوم القبرصي ضد الأسكندرية، فإن تجار فاماجوستا– كغيرهم من بقية تجار الغرب الأوربي– كانت

لديهم رغبة أكيدة في إبرام الصلح بين الطرفين، حتى أن عددا من كبار تجار تلك المدينة قد استقبلوا الرسل القادمين من القاهرة لهذا الغرض.

- خضوع جزيرة قبرص لنفوذ وسيطرة المماليك في عهد السلطان الأشرف برسباي عام ٨٢٩هـ/١٤٢٦م كان له تأثير إيجابي على مستوى العلاقات التجارية ما بين الدولتين؛ فقد عرفت البضائع والسلع القبرصية طريقها للأسواق المصرية والسورية بمستوى متنام ومتزايد عن الفترات السابقة، وقد اتسمت تلك البضائع بالوفرة والتنوع. كما أن معاهدة الصلح التي تم عقدها ما بين السلطان برسباي والملك جانوس لم تقتصر نتائجها على مستوى العلاقات التجارية التي ربطت بين مصر وقبرص فحسب، وإنما كان من تأثيراتها عودة الأمن والهدوء للمنطقة، وقدوم التجار الغربيين من جديد للأراضي المصرية والسورية للحصول على بضائع الشرق.
- وجدت بمصر وسوريا جالية قبرصية جنبا إلى جنب مع الجاليات الأوربية الأخرى، وقد تمركز القبارصة بصفة خاصة في مدينتي الأسكندرية وبيروت. كما أن تجار قبرص امتلكوا داخل الأسكندرية فندقا خاصا بهم سمي "بخان موسى". وكان لهم كذلك بمدينة بيروت فندق، وعدد من الخانات والحمامات. كما أن الوثائق البندقية أشارت إلى تواجد قناصلة للقبارصة داخل الأراضي المصرية والسورية، خاصة بعد أن تمت المصالحة بين الجانبين، عقب حملة بطرس على الأسكندرية.
- تميزت البضائع التجارية المتبادلة بين مصر وسوريا من ناحية وجزيرة قبرص من ناحية أخرى بالتنوع والثراء، وإن ظلت التوابل تمثل السلعة الأهم التي أقبل التجار القبارصة على حملها من الأسواق المملوكية، بالإضافة إلى منتجات تجارية وصناعية محلية شهيرة كالسكر المصري والقطن السوري. أما عن أهم البضائع القبرصية التي عرفت طريقها للأسواق المملوكية فيأتي في مقدمتها المنسوجات والأقمشة الصوفية *camlet*، فضلا عن القمح والملح.

مصادر ومراجع البحث

أولا: المصادر والمراجع العربية:

ابن اياس (محمد بن أحمد)، *بدائع الزهور في وقائع الدهور*، (تحقيق) محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب–القاهرة، ١٩٨٣–١٩٨٤.

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، (قدم له وعلق عليه) محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٩٩٢م.

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد)، *إنباء الغمر بأبناء العمر*، (تحقيق) حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي – القاهرة، ١٩٧٢م.

ابن سباط (حمزة بن أحمد بن عمر)، *تاريخ ابن سباط*، (تحقيق) عمر عبد السلام تدمري، جروس برس–طرابلس، ١٩٩٣م.

ابن شاهين الظاهري (زين الدين عبد الباسط بن خليل)، *نيل الأمل في ذيل الدول*، (تحقيق) عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية–بيروت، ٢٠٠٢م.

ابن قاضي شهبة (تقي الدين أبو بكر بن أحمد الدمشقي)، *تاريخ ابن قاضي شهبة*، (حققه) عدنان درويش، دمشق، ١٩٩٤م–١٩٩٧م.

ابن مماتي (الأسعد)، *كتاب قوانين الدواوبيين*، (تحقيق) عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي–القاهرة، ١٩٩١م.

اديوري (بيتر)، *قبرص والحروب الصليبية*، دار الملتقى للطباعة والنشر–بيروت، ط١، ١٩٩٧م. **حبشي** (حسن)، "هجوم القبارصة على الأسكندرية"، مقال *بالمجلة التاريخية المصرية*، العدد ١٥، القاهرة، ١٩٦٩م.

دراج (أحمد)، *المماليك والفرنج*، دار الفكر العربي–القاهرة، ١٩٦١.

صالح بن يحيي، *تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب*، نشره وعلق عليه: لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية–بيروت، ١٨٩٨م.

عاشور (سعيد)، *أضواء جديدة على الحروب الصليبية*، الدار المصرية للتأليف والترجمة–القاهرة، ١٩٦٤م.

-----، *قبرس والحروب الصليبية*، الهيئة المصرية العامة للكتاب–القاهرة، ٢٠٠٢.

ماهر (سعاد)، *البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية*، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر–القاهرة، ١٩٦٧م.

المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي)، *السلوك لمعرفة دول الملوك*، (تحقيق) محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية–بيروت، ١٩٩٧م.

–––––، *النقود الإسلامية، الرسالة الأولى من كتاب "ثلاث رسائل"*، مطبعة الجوائب–قسطنطينية، ١٢٩٨هـ.

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، دار الكتب العلمية–بيروت، ٢٠٠٤م.

النويري الأسكندراني (محمد بن قاسم بن محمد)، *كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الأسكندرية*، (تحقيق) عزيز سوريال عطية، مطبعة دائرة المعارف العثمانية–حيدر أباد، ١٩٧٠م.

هايد (ف)، *تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى*، (مراجعة وتقديم) عز الدين فوده، ٤ ج، الهيئة المصرية العامة للكتاب–القاهرة، ١٩٨٥–١٩٩٤م.

ثانيا: المصادر والمراجع الغربية:

Alphandéry (**Paul**), *La Chrétienté et l'idée de croisade (XIIe–XIIIe siècles),* éd. Albin Michel, Paris, 1971.

Arbel (**Benjamin**), "The last Decades of Venice's Trqde with the Mamluk: Importations into Egypt and Syria", in *Mamluk Studies Review*, VIII (2), Middle East Documentation Center, The University of Chicago, 2004, pp. 37–86.

––––––––, "Venetian Cyprus and the Muslim Levant, 1473–1570", in *Cyprus and the Crusades*, Nicosia Cyprus Research Center, 1995, pp. 159–185.

Ashtor (**Eliahu**), *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, London, 1976.

--------, *Levant Trade in the Middle Ages*, Princeton University Press, New Jersey, 1983.

--------, "Quelques problèmes que souléve l'histoire des prix dans l'Orient mediéval", in *Studies in memory of Gaston Wiet*, edited by : Myriam Rosen-Ayalon, Institute of Asian and African Studies, 1977, pp. 203-234.

--------, "The Venetian Cotton Trade in Syria in the Later Middle Ages", in *Studies on the Levantine Trade in the Middle Ages*, Variorum Reprints, London 1978, pp. 675-715.

Atiya (Aziz), *Crusade, commerce and culture*, Indian University Press, Bloomington, 1962.

Baron d'Anglure, *Le saint voyage de Jérusalem par le Baron d'Anglure (1395)*, Paris, 1858.

Blondy (Alain), *Chypre*, éd. Presses universitaires de France, Paris, 1998.

Coureas (Nicholas), "Commercial Relations between Genoese Famagusta and the Mamluk Sultanate, 1374-1464", in *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, Vol. VII, Uitgeverij Peeters en department Oosterse Studies, Paris, 2013, pp. 329-350.

--------, "Controlled Contact: The Papcy, the Latin Church of Cyprus and Mamluk Egypt, 1250-1350", in *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Ears*, Vol. IV, Uitgeverij Peeters en Departement Oosterse Studies, Paris, 2005, pp. 395-408.

--------, "Latin Cyprus and the relations with the Mamluk Sultanate, 1250-1517", in *The Crusader World*, ed. A. Boas, London, 2016, pp. 391-418.

--------, "Losing the war but wining the peace: Cyprus and Mamluk Egypt in the fifteenth Century", in *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and*

Mamluk Eras, Vol. VII, Uitgeverij Peeters en Departement Oosterse Studies, Paris, 2013, pp. 351-361.

--------, "The Lusignan Kingdom of Cyprus and the Sea, 13^{th} -15^{th} Centuries", in *The Sea in History, The Medieval* World, Edited by: Michel Balard, ed. The Boydell Press, 2017, pp. 369-381.

--------, "The Tribute paid to the Mamluk Sultanate, 1426-1517: The Perspective from Lusignan and Venetian Cyprus", in *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Ears*, Vol. VII, Uitgeverij Peeters en department Oosterse Studies, Paris, 2013, pp. 363-380.

Day (John), "The Levant Trade in the Middle Ages", in *The Economic History of Byzantium: From the seventh through the fifteenth Century*, Dumbarton Oaks, Washington, 2002, pp. 807-814.

Depping (G.), *Histoire du commerce entre le Levant et l'Europe*, Paris, 1830.

Ferrer (M.), "Catalan Commerce in the late Middle Ages", in *Catalan Historical Review*, N. 5, Institut d'Estudis catlans, Barcelona, 2012.

Galibert (M. Léon), *Histoire de la République de Venise*, Paris, 1850.

Jorga (Nicolae.), *Brève histoire des croisades*, Paris, 1924.

--------, *Philippe de Mézières (1327-1405) et la croisade au XIV^e^ siècle*, éd. Honoré Champion, Paris, 1976.

Levanoni (Amalia), *A Turning Point in Mamluk History*, Brill, Leiden, 1995.

Ludolph de Sudheim, "Le chemin de la Terre sainte", in *Croisades et Pèlerinages : Récits, chroniques et voyages en Terre sainte XIIe-XVIe siècle*, Edition établie sous la direction de Danièlle Régnier Bohler, Paris, 1997, pp. 1029-1056.

Luke (Sir Harry), "The Kingdom of Cyprus, 1291-1369" in *A History of the Crusades*, Vol. 3, edited by: Harry Hazard, The University of Wisconsin Press, Wisconsin, 1975, pp. 340-360.

Machéras (Léonce), *Chronique de Chypre*, Traduction française par E. Miller, Paris, 1882.

Mas-Latrie (M. L.), "Des relations politiques et commerciales de l'Asie Mineure avec l'île de Chypre, sous le règne des princes de la maison de Lusignan (deuxième article)", in *Bibliothèque de l'école des chartes*, Vol. 6, N. 1, 1845, pp. 485-521.

--------, *Histoire de l'lle de Chypre sous le règne de la maison de Lusignan*, (3 Vol.), Paris, 1852-1855.

Nam (Jong-Kuk), *Le commerce du coton en Méditerranée à la fin du Moyen Age,* éd. Brill, Leiden, 2007.

Northrup (Linda), "The Bahri Mamluk Sultanate, 1250-1390", in *The Cambridge History of Egypt*, Vol. I (Islamic Egypt, 640-1517), Edited by: Carle Petry, Cambridge University Press, 2008, pp. 242-289.

Ouerfelli (Mohamed), "La consommation d'un produit de luxe en France au moyen âge : l'exemple du sucre", in *L'economie du luxe en France et en Italie*, comité franco-italien d'histoire economique, Lille, 2007.

--------, *Le sucre: production, commercialization et usages dans la Méditerranée médievale*, Brill, Leiden, 2008.

--------, " Les relations entre le royaume de Chypre et le Sultanat Mamelouk au XVe siècle", in *Le Moyen-Âge, revue d'histoire et de philologie*, Tom. CX, N. 2, Bruxelles, 2004, pp. 327-344.

Pahlitzsch (**Johannes**), "Mediators between East and West: Christians under Mamluk Rule", in *Mamluk Studies Review*, Vol. 9. No. 2, Middle East Documentations Center, the University of Chicago, 2005, pp. 31-47.

Piloti (**Emmanuel**), *L'Égypte au commencement du XV^e siècle d'après le traité d'Emmanuel Piloti de Crète*, Le Caire, 1932.

--------, *Traité d'Emmanuel Piloti sur le passage en Terre Sainte*, publié par Pierre-Herman Dopp, Paris, 1958.

Richard (**Jean**), *Chypre sous les Lusignans, (documents chypriotes des archives du Vatican XIV^e et XV^e siècles)*, éd. Libraire orientaliste, Paris, 1962.

--------, "Le royaume de Chypre et l'embargo sur le commerce avec l'Egypte, fin XIIIe-début XIVe siècle", in *Croisades et Etats latins d'Orient*, Variorum, 1992, pp. 120-134.

Rousset (**Paul**), *Histoire d'une idéologie (La croisade)*, Lausanne, 1983.

Thenaud (**Jean**), *Le voyage d'Outremer : Egypte, Mont Sinay, Palestine, suivi de la Relation de l'ambassade de Domenico Trevisan auprès du soudan d'Egypte, 1512*, Publié et annoté par : Ch. Schefer, Paris, 1884.

Tsugitaka (**S.**), « Slave Traders and Karimi Merchants », in *Mamluk Studies Review*, X (1), Middle East Documentation Center, the university of Chicago, 2006, pp. 141-156.

Verlinden (**Charles**), "Marchande chrétiens et juifs dans l'Etat mamelouk au début du XVe siècle d'après un notaire vénitien", in *Bulletin de l'institut historique belge de Rome*, 51, 1981.